

دراسات في الرحلة الحجية المغربية (5)

طرق الرحلات الحجية المغربية

د. عبد الله بوغوتة

أستاذ باحث في التاريخ والتربية والتكوين،

أستاذ مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

لجهة الشرق

منذ أن فُرض الحج على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة، وقلوبهم مشدودة إلى بيت الله العتيق، تأتبه أفواجهم من كل فج عميق؛ ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معدودات، بل إن رحلات الحج في الواقع، لم تنقطع منذ أن وضع نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام أساس الكعبة المشرفة في واد غير ذي زرع؛ إذ ظلت الركبان تغد إلى هذا البيت العتيق عبر مسالك وطرق مختلفة، ومن أقطار شتى.

وتعددت هذه المنافع، فمنها الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وحدثت خلالها وقائع تاريخية متفاوتة الأهمية، ووقعت هجرات وتحركات سكانية من بيئة إلى أخرى، في صور متعددة: فردية أو أسرية أو جماعية. ونقلت عبر هذه الطرق الكتب والأموال والمصنوعات والمواد الخام، إلى جانب العادات والتقاليد، والثقافات، والأفكار، والمهارات. وكان لكل ذلك أثره البالغ في تكوين مجتمعات إسلامية متعددة الروافد، ومتلاحمة الأواصر، متقاربة العادات والتقاليد، رغم تباعد ديارها، واختلاف لغاتها وأعرافها، واحتفاظها بكثير من خصوصياتها... ترى ذلك في تشابه بعض العادات والملابس والأدوات التي كان الحج مصدراً لتقاربها، ومكاناً لتبادلها، وتلاحقها أخذاً، وعطاءً.

ولما كان بعض الحجاج من الكتاب يدونون مذكراتهم عن المحطات التي كانوا يستريحون فيها، وهم في طريقهم لأداء المناسك، لم يكونوا يفكرون في أنهم يقومون بالتأريخ لمواقع ستمسي، في يوم من الأيام، محل اهتمام من الذين يعنون بتقَيِّ تلك المحطات، التي أصبحت تنعت عند المهتمين بتاريخ الديانات بأنها «طرق الإيمان» على نحو حديث المؤرخين اليوم عن طرق الحرير.

إن هذه المواقع، التي كان يمر بها الحجاج، أصبحت، بفضل هذا العبور، طوال موسم الحج ذهاباً وإياباً، مراكز ثقافية وعلمية وتجارية وحضارية يجتمع فيها أهل العلم، والصناعة، والتجارة، وآخرون.

ولعل الممتع في تلك الإفادات التي يقدمها لنا هؤلاء الرحالة عن تلك الجهات أنها تتناول الحديث عن تلك المواقع في سائر فصول السنة؛ لأن موسم أداء فريضة الحج لا يرتبط بتاريخ شمسي يجعلنا نعيش فقط مع

فصل معين من فصول السنة حراً وبردأ واعتدالاً، ولكن الموسم يرتبط بالتاريخ القمري: تاسع ذي الحجة، ومعنى هذا أن الحج يتم أحياناً في الشتاء، وأحياناً في الصيف، وحيناً في الربيع، وحيناً آخر في الخريف. وهكذا يمكننا أن نعرف محطات الحجاج في سائر تلك الفصول، وأن نأخذ فكرة عن المناخ في مختلف أيام السنة. انطلاقاً من النصوص الرحلية التي تقدم لنا وصفا صادقا للنشاط والحركة في كل تلك المراكز عندما يمر بها الحجاج، وهي تعيش حراً وقرأً.

أولاً: طريق الحجاج المغربي

اتسعت رقعة «دار السلام» بسرعة كبيرة مع نهاية القرن الأول الهجري (بداية القرن الثامن الميلادي)؛ حيث امتد نفوذ المسلمين، ليصل إلى ما بين الصين وجنوب شرق آسيا في الشرق، وشمال إفريقيا كله ثم عبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس في الغرب. وكان أن اتجهت قوافل الراغبين في الحج، التي تأتي من كل فج عميق، إلى الأراضي المقدسة؛ لأداء الفريضة، وليشهدوا منافع لهم، كما حدثنا القرآن الكريم بذلك: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (25) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا مِنَّمْ اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ (26) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [سورة الحج: الآية 27]

ولقد تعددت المسارات التي سلكتها ركاب الحج من سائر الأقطار والأمصار. ويمكن أن نوجز أهم هذه الطرق على النحو الآتي:

أولاً: طرق الحج الإفريقية، وأهمها الطرق التالية:

1. طريق الحج المغربي (شمال إفريقيا).
2. طريق الحج السوداني (من غرب إفريقيا).
3. طريق الحج المصري.
4. طريق الحج من شرق إفريقيا، ومن جنوب آسيا.

ثانياً: طرق الحج الآسيوية، وأهمها الطرق التالية:

1. طريق الحج الشامي والتركي.
2. طريق الحج العراقي.
3. طريق الحج اليمني.
4. طريق الحج من جنوب آسيا، ومن جنوب شرق آسيا.

1.1- الطريق البري

كانت قافلة الحج القادمة من المغرب تسلك، في معظم الأحيان، الطريق الساحلي من فاس إلى القاهرة، وكانت تتزايد في أعدادها على امتداد الطريق. وكان البعض من يأتي سائراً على قدميه، والبعض الآخر يمتطي الخيل، أو البغال، أو الحمير، أو الإبل. وحين كانت القافلة تصل إلى القاهرة كانت تضم عدة آلاف، وكانت المسافة الطويلة بين المغرب ومكة، والتي تزيد على 4700 كلم تقطع مسافات من الهضاب والسهول والصحاري والمناطق الجبلية.

أما أهم وسائل النقل، عبر هذا الطريق الطويل، الذي كان يمر عبر ليبيا قبل الوصول إلى القاهرة، فكانت بالأساس الإبل. ويمكن أن يلاحظ أن انتشار الإسلام قد أدى إلى أن تلك الرحلات لم تلتزم بالطريق الساحلي كلية، بل اختار بعضها اجتياز المناطق الداخلية. ولم يتغير ذلك حتى مقدم الإيطاليين إلى ليبيا¹. ويمكن القول إن ظهور الجمل العربي وحيد السنام، في شمال إفريقيا، يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، وكان لذلك أثره في تسهيل رحلات القوافل الصحراوية؛ ذلك بأن الجمل حيوان صبور يستطيع أن يتحمل العطش لمدة عشرة أيام، ويستطيع أن يحمل على ظهره ما لا يستطيع حيوان آخر أن يحمله، وهو أسرع من أي حيوان آخر في تلك الظروف الصحراوية؛ إذ يعد سفينة الصحراء بامتياز، كما يقال.

ومنذ وصول الإسلام إلى الغرب الإسلامي في القرن السابع الميلادي، استخدم تجار البريد الإبل في قوافلهم التجارية التي تعبر الصحراء الكبرى، وكانت رحلة الحج واحدة من أهم أهداف رحلة القوافل. ويمكن تقسيم الطريق البري من المغرب إلى مصر إلى مراحل كبرى، كالآتي:

المرحلة الأولى: الطريق من المغرب الأقصى والأندلس إلى إفريقية (تونس): وهذا الطريق يمر عبر مناطق

الشريط الساحلي؛ لكونها أخصب أراضي المغرب، وأوفقها للسكنى، وأوفرها ماء². أما في المغرب الأوسط، فمع مرور الوقت أصبح الطريق داخلياً يمر ببلاد الزاب؛ فبيدأ من تاهرت، وينتهي في القيروان، وتتخلله بعض المسالك الوعرة في ممرات جبال الأوراس، إلا أنها كانت عامرة بالحصون والمزارع، وأهلة بالسكان³. وفي ذلك ما يدل على ارتباط المسالك البرية بمراكز الإنتاج والسكن.

¹ - جغرافية ليبيا البشرية، محمد المبروك المهدي، جامعة قار يونس، بنغازي، 199، ص 347.

² - المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط، حسين مؤنس، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد، السنة 1951م، ص 96.

³ - البلدان، اليعقوبي، ص 107-109.

وكان الركب المريني ينطلق من باب الفتوح بفاس، متوجها نحو مدينة تازة، ثم مدينة وجدة، فتلمسان. وبعدها يمر الركب بمليانة والجزائر وبجاية وقسنطينة، وبونة، وباجة وتونس.

المرحلة الثانية: الطريق من إفريقية إلى مصر: أما هذه الطريق فقد تشعبت إلى مسلكين، يسير أحدهما بمحاذاة الساحل؛ فيمر بتونس، فالقيروان، ثم قاليس¹، وصبرة²، وطرابلس³، وقصور حسان⁴، ومغمداس⁵، وسرت⁶، ثم أجداية⁷. وأما الطريق الآخر، فهو طريق يقع إلى الجنوب من الطريق الساحلي، ويمتد من القيروان إلى أجداية⁸، ويعرف بطريق السكة أو الحادة العظمى⁹، ويلتقي الطريقان في بعض المحطات المهمة مثل أجداية، وسلوق، وبرقة¹⁰ إلى الإسكندرية.

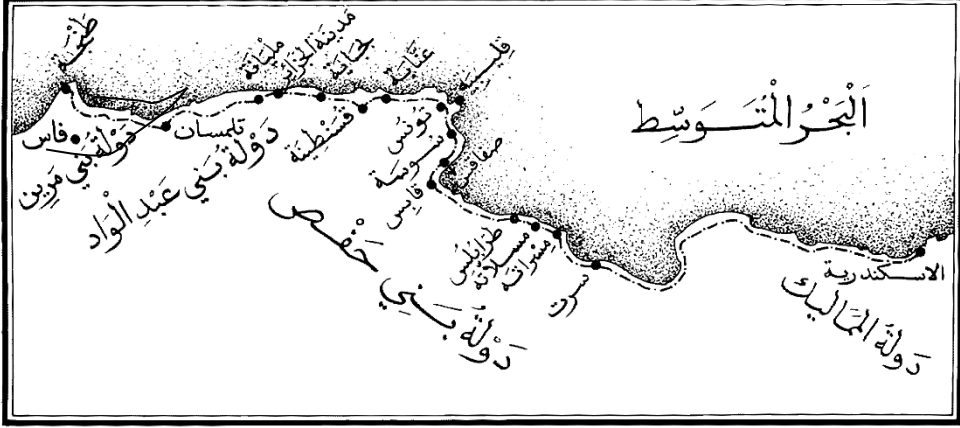
ويبدو أن المرتحلين كانوا يفضلون السير عبر الطريق البري الساحلي، أكثر من الطريق البري الداخلي، خصوصا من أجداية إلى الإسكندرية، ويرجع السبب في ذلك إلى قلة خصوبة الأراضي الداخلية في تلك المنطقة، وفقر مواردها الطبيعية، وضعف كثافتها السكانية، ولذا، فإن معظم المحطات الواقعة في الطريق لا تعدو كونها نقاط عبور وحسب.

وكانت الإسكندرية المحطة الأولى في مصر التي تستقبل حجاج المغرب الإسلامي¹¹. وبعد فترة من الراحة هناك، يتزودون بما يحتاجون إليه من زاد السفر، ثم يستأنفون مسيرهم نحو القاهرة ومنها إلى أرض الحجاز. ومعلوم أن القاهرة هي مكان تجمع الحجاج، سواء القادمين برا أم بحرا، ويكون التجمع قبل شهر شوال، وقبل خروج الحمل المصري في نهاية شوال من كل سنة.

- 1 - مدينة في تونس، بنىها وبين القيروان أربع مراحل، اشتهرت بزراعة التمر والموز والتوت. (الروض، الحميري، ص450)
- 2 - مدينة تقع بالقرب من القيروان، وقد جدد بناءها المنصور الفاطمي سنة 337هـ، وسماها المنصورية، ونقل إليها ابنه المعز أسواق القيروان، (المغرب، البكري، ص25).
- 3 - أطرابلس أو طرابلس، من أكبر مدن إفريقية (ليبيا حاليا)، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتمتاز بتعدد أسواقها، وكثرة بساطينها، ووفرة محاصيلها الزراعية، (الروض، الحميري، ص389)
- 4 - موضع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، يقع شرق طرابلس، أقام فيه حسان بن النعمان الغساني، وبني خلال مدة مقامه هناك قصورا نسبت إليه، (معجم البلدان، الحموي، 4/366)
- 5 - تقع على الساحل الإفريقي فيما بين سرت وقصور حسان، وقد ابتنى فيها عمال الفاطميين قصورا، (المغرب، البكري، ص7).
- 6 - سُرت، مدينة ساحلية تقع في إقليم برقة، ويفصلها عن طرابلس 230 ميلا، وتوجد بها زراعة التين والتوت، (الروض، الحميري، ص213).
- 7 - أجداية، مدينة صحراوية كبيرة في برقة، كثيرة الأسواق والفتادق. (الروض، الحميري، ص12).
- 8 - الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، 1981، ص119-123.
- 9 - البلدان، اليعقوبي، ص104، وروض القرطاس، ابن أبي زرع، ص18.
- 10 - برقة، مدينة كبيرة بين الإسكندرية وإفريقية، كثيرة الثمار وأصناف الفواكه، (المغرب، البكري، ص5).
- 11 - الملاحج الجغرافية لدروب الحجاج، سيد عبد المجيد بكر، الكتاب الجامعي، تهامة، 1401هـ/1981م، ص83.

ويستخلص مما ذكره القلقشندي أنه، في عصر الماليك، كان الحمل مجهز إلى مكة من الديار المصرية بكسوة الكعبة المعظمة مع أمير الركب¹.

خريطة رقم 10: الطريق البري من المغرب إلى مصر².



1.2- الطريق البحري

أما الطرق البحرية من المغرب والأندلس، فتعد قناة محممة من قنوات التواصل الروحي والثقافي بين المغرب والمشرق، وكذا بين سائر أقاليم العالم الإسلامي. وعلى الرغم من شدة البحر وأهواله، وتواضع وسائل المواصلات البحرية، إلا أن بعض المرتحلين آثروا استعمال الطرق البحرية في رحلاتهم الحجية، ولو جزئياً، باعتبارها الوسيلة الأسرع في السفر³؛ ولأنها تجنبهم ويلات الفتن والحروب التي حلت ببعض المسالك البرية خلال أوقات متفاوتة.

تتعدد نقط انطلاق الطريق من المغرب والأندلس إلى المشرق الإسلامي؛ حيث كانت الانطلاقة إما من إشبيلية التي كانت لها علاقات قوية بمدينة الإسكندرية⁴، وإما من سبتة وجزيرة طريف⁵، وإما مباشرة من

¹ - صبح الأعشى، القلقشندي، دار الكتب المصرية، 1340هـ/1922م، 281/4.

² - رحلة ابن بطوطة بتحقيق الدكتور عبد الهادي التازي مع مستدركاها، 148/1. (مع تعديل طفيف)

³ - الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، علي أحمد، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1989م ص119.

⁴ - Ch. Picard, L'Océan atlantique musulman de la conquête arabe à l'époque Almohades, Paris, 1999, p408.

⁵ - رحلة ابن جبير، ابن جبير، دت، ص41.

ألمرية التي انطلق منها ابن رشيد السبتي وآخرون¹، وإما من مالقة التي انطلق منها أبو بكر بن العربي المعافري وآخرون². ثم بعد ذلك، تسير السفن محاذية لسواحل بلاد المغرب إلى أن تصل إلى الإسكندرية، ومنها تتابع رحلتها نحو سواحل بلاد الشام، وخاصة موانئ عكا وصور وصيدا³.

لقد اعتبر هذا الخط أنشط الخطوط البحرية في الحوض المتوسطي، وقد كان مرتادا أساسا من قبل الحجاج (المسلمين والنصارى)، الذين كانت تتولى البحرية الإيطالية نقلهم إلى الديار المقدسة. ونظرا لهذه الأهمية، فإن العديد من الباحثين وقفوا عنده محاولين تفسير سبب تفضيل الحجاج والتجار المغاربة لهذا الطريق البحري على الطريق البري، الذي كان يربط بين بلاد المغرب ومصر⁴. وقد أرجعوا ذلك إلى ما عرفته إفريقيا من اجتياح بعض القبائل للطريق البري فأضحى غير آمن، مما دفع بالمسافرين القاصدين إلى مصر، وما بعدها، إلى ركوب البحر.

واستمر استعمال الطريق البحري الرابط بين بلاد المغرب ومصر، على عهد الدولة الموحدية، التي تمكنت من إخضاع بلاد المغرب لسيطرتها، ولعل الأمر هنا يرجع، بالأساس، إلى عامل الوقت. فالمدة الزمنية التي يتطلبها قطع الطريق البري أكثر من تلك التي يتطلبها قطع الطريق البحري. ومع ذلك لا نعدم إشارات توضح تفضيل استخدام الطريق البري على الطريق البحري.

ولعل في حملة الأخماس التي قام بها الموحدون على عهد عبد المؤمن في اتجاه إفريقية وطرابلس، خير دليل على هذا الأمر؛ إذ كانت حركة السفن أسرع من حركة الجيوش البرية، ومن هنا نرى أن عامل السرعة كان يفعل فعله في تفضيل طريق على آخر، وذلك رغم الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها الحجاج والتجار في البحر.

¹ - رحلة ابن رشيد السبتي، تحقيق أحمد حدادي، 230/2.

² - قانون التأويل، أبو بكر بن عبد الدين العربي المعافري الإشبيلي، تحقيق: محمد السليمان ط2، دار الغرب الإسلامي، 1990م، بيروت، ص79-109. وحول المخططات التي كانت تشكل هذا المحور حسب قول ابن العربي «فكان أول بلدة دخلت مالقة... ثم طمرت من غرناطة... إلى ألمرية وركبت البحر... فإرفانا إلى بجاية... ثم خرجت عنها... فلقيت ببونة... ودخلنا تونس... ثم دخلت سوسة والمهدية... فلما حان وقت إقلاع المراكب في البحر إلى ديار الحجاز، اعتزمتنا فركبنا... واتهمنا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم... وسرنا حتى اتهمنا إلى ديار مصر... ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام... فدخلنا الأرض المقدسة وبلغنا المسجد الأقصى... ودخلنا البحر في الحين إلى عكا وأنجدنا إلى طبرية وحوران وصمدنا في دمشق... ثم خرجنا إلى العراق... حتى بلغنا بغداد.»

³ - أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، القاهرة، دت، ص296.

⁴ - مجمع المغرب الأقصى في منتصف ق4هـ/10م، مولاي هاشم القاسمي، الدار البيضاء، 1995م، ص379-380.

والسالك لهذا الخط كان عليه أن يتوقف بميناء الإسكندرية، ثم يستأنف سيره العادي نحو بلاد الشام¹، أو أن يتوقف بالإسكندرية ليتوجه بعد ذلك إلى سواحل البحر الأحمر، ومنها إلى جدة فالديار المقدسة². كما أن السفن المارة عبر هذا الخط كثيرا ما كانت تفضل الرسو في جزيرة صقلية التي ينطلق منها خطان، أحدهما في اتجاه الإسكندرية والآخر نحو ميناء عكا³.

وبعد ذلك، أنشئ خط بحري من طنجة إلى الإسكندرية أو إسطنبول، كما جاء في الرحلة المشرقية لمحمد بن يحيى الصقلي⁴: «انطلقت رحلة الصقلي من ميناء مدينة طنجة الدولية يوم 23 أكتوبر / تشرين الأول 1928 على متن باخرة طامبورة TAMBOURA التي تحركت عند الساعة الثانية عشرة ظهرا باتجاه ميناء مرسيليا التي وصلها الصقلي عند الساعة الواحدة من يوم 25 أكتوبر / تشرين الأول؛ حيث استغرقت الرحلة تسعاً وأربعين ساعة. وبعد يومين بهذه المدينة الخميس والجمعة امتطى الصقلي يوم السبت في الساعة الثانية مساء باخرة يونانية اسمها باتريس دو التي تحركت عند الساعة الرابعة مساء لتبحر طوال يومي الأحد والاثنين بمحاذاة الشواطئ الإيطالية وجزيرة صقلية. وقبل أن تصل البخرة إلى ميناء بيرة باليونان عند الساعة العاشرة من صبيحة يوم الأربعاء 31 أكتوبر / تشرين الأول بعد ما مرت على جانب الشواطئ اليونانية وملتقى بحر اليونان وبحر إيجة. وقد تحركت البخرة بعد ذلك يوم الخميس فاتح نوفمبر / تشرين الثاني عند الساعة السابعة مساء باتجاه سالونيك، وفي الغد أي يوم الجمعة عند الساعة الثالثة والنصف وصلت البخرة إلى مدينة سالونيك، ثم بعد ذلك القسطنطينية⁵. والواضح من هذه الطريق أنها تعكس جوانب من التحولات التي عرفها الإبحار بحوض البحر الأبيض المتوسط حيث صار الاحتكاك بين ضفتي المتوسط قويا، وهو ما كان يسمح بتواصل أكبر بين شعوبه ولعل الظروف التي واكبت الرحلة منذ خروجه من ميناء طنجة واحتكاكه بعناصر أجنبية تؤكد ذلك. وبعد ذلك ظهرت الرحلة عبر الطائرة إلى جانب الرحلات الأخرى، ونظرا للمدة الزمنية والأمان، وإغلاق الحدود البرية خاصة من قبل دولة الجزائر في وجه المغاربة بشكل عام، فإننا نكاد لا نعرف اليوم إلا هذ النوع، أي الرحلة المباشرة إلى جدة أو إلى مكة

¹ - رحلة ابن العربي، قانون التأويل، ص 79-100.

² - رحلة ابن جبير، ص 56-57.

³ - نفسه.

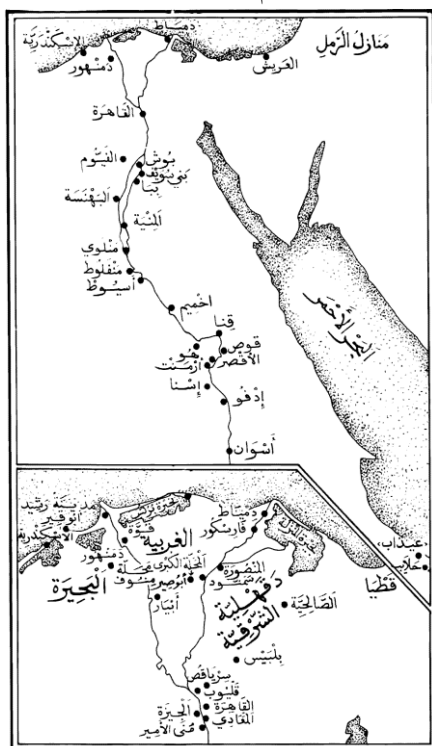
⁴ - الرحلة المشرقية، محمد بن يحيى الصقلي، دراسة وتخرّج، مصطفى الغاشي، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2015، ص 19.

⁵ - الرحلة المشرقية، جريدة السعادة، ع 3312، 1928، ص 1.

كان طريق الحجاج قد حُوِّلَ في أواخر العهد الأيوبي، من عيذاب إلى طريق العقبة شرقي مصر؛ حيث كان ينحدر الحجاج من هناك براً إلى شمال الحجاز. ولقد أثرت «شجرة الدر» أن تسافر إلى مكة بطريق البر سنة 645 هـ/1247م، فاعتبرت أول مرّ تاد لهذا الطريق الذي صار هو الطريق الرئيس للحجاج منذ أيام الظاهر بيبرس البندقداری.

وبذلك قل مرور الحجاج عبر طريق البحر، خاصة عبر النيل، إلى قوص، ثم إلى عيذاب، فجدة، الذي استمر طريقا للتجار، حتى تحول بعد سنة 760 هـ/1359م، وتضاءل شأن قوص عند ذلك الحين. وبعد تسعة وثلاثين عاما من رحلة ابن جبير، نجد الرحالة العبدري يقوم برحلته إلى الحج أيضا في 25 ذي القعدة سنة 688 هـ، لكنه خالف طريق ابن جبير؛ فذهب من القاهرة برا إلى العقبة ثم الحجاز، فكان طريقه إلى مكة من بعد القاهرة يشبه الطريق الذي سلكه ابن بطوطة.

خريطة رقم 11: مسالك مصر¹.



¹ - رحلة ابن بطوطة بتحقيق الدكتور عبد الهادي التازي مع مستدركاها، 177/1.

ويعتبر درب الحَاجِّ المصري المار بصحراء شبه جزيرة سَيْنَاء، من أهم الطرق والدروب والمسارات والمسالك، سواء البرية أم البحرية، التي تحتازها الركاب والقوافل، على الرغم من كثرتها وتنوعها. فصحراء شبه جزيرة سَيْنَاء تتمتع بالوسطية بين قارات العالم القديم؛ مما أهَّلها لتكون همزة وصل تربط غرب العالم الإسلامي بشرقه. وهي تتمتع بهذه الاستراتيجية المميزة منذ أقدم العصور؛ مما جعلها تشتمل على العديد من الطرق التاريخية الأثرية المختلفة الوظائف، لعل أهمها: طريق حورس الحربي في العصر الفرعوني، وطريق خروج بني إسرائيل من مصر، وطريق هروب العائلة المقدسة من بيت المقدس إلى مصر ذهاباً وعودة؛ وطرق الحُجاج المسيحيين، وطريق الفتح الإسلامي لمصر «درب الرمل - درب السلطاني»، وطريق البحر «الساحلي»، وطريق صلاح الدين الأيوبي الحربي المعروف بطريق «صُدْر وأيلة»، أو «الطريق الصُدْرية» أو «البرِّيَّة» بوسط سَيْنَاء، والطريق البدوية بمساراتها المختلفة «طريق المهريين». وأخيراً درب الحَاجِّ المصري عبر سَيْنَاء الذي أضاف لشبه جزيرة سَيْنَاء أهمية جديدة، بحيث إنه لما ظهر الإسلام وانتشر في ربوع مصر وبلاد المغرب والأندلس وأفريقيا، وما أن الإسلام يفرض على القادرين من المسلمين حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، كان الحُجاج يجتمعون في مصر، ويأتي المغاربة والأندلسيون والأفارقة من بلادهم لينضموا لإخوانهم من حجاج مصر، ثم تبدأ القافلة سيرها إلى أرض الحجاز حيث مكة المكرمة والمدينة الشريفة، وذلك عبر صحراء شبه جزيرة سَيْنَاء؛ المكان الوحيد في أرض الإسلام الذي يُمكن من خلاله تحقيق الاتصال البرِّي بين غرب العالم الإسلامي وشرقه. وهو الأمر غير المحقق الآن للأسف، على أرض الواقع، منذ النصف الثاني من القرن العشرين وإلى يومنا هذا نظراً للاحتلال الصهيوني!

وقد مر هذا درب بعدة أطوار ومراحل تاريخية مختلفة بعد الفتح الإسلامي لمصر، واعتماده درباً رئيساً لسير قوافل الحجيج. وقد كان هذا المسار الواصل بين بحري القُلُزُم «السُّوَيْس» وأيلة «العَقَبَة» معروفاً قبل الفتح الإسلامي لمصر؛ إذ إنه الطريق البرِّي الوحيد الذي يصل ما بين جزيرة العرب وبادية الشام وبلاد النهرين من جهة ومصر وغرب العالم القديم من جهة ثانية، وذلك منذ العصور القديمة السابقة على ظهور الإسلام.

أما بعد الفتح الإسلامي لمصر فقد أصبح الطريق الرئيس لعبور قوافل الحجيج القادمة من مصر والمغرب الإسلامي وغرب إفريقيا والأندلس؛ لأنه أقصر الطرق التي يمكن سلوكها للوصول إلى الأراضي المقدسة، يضاف إلى ذلك أنه الطريق البرِّي الوحيد المباشر من جهة مصر، الذي يوصل إلى الأراضي المقدسة حيث مكة المكرمة والمدينة المنورة، وارتباط هذا درب بالعديد من الطرق التي تلتقي به، سواء في بدايته أم وسطه أو نهايته، يزيد أهميته، سواء الدينية لسير قوافل الحجيج أو التجارية أو البحرية لتوافر الخدمات به طوال السنة.

وتجلت مظاهر الاهتمام والعناية بطريق الحج المصري/المغربي في هذا العصر غربا وشرقا، فعلى المستوى الشرقي أولى سلاطين المماليك لطريق الحج بقسميه عناية خاصة، وكذلك اعتنى المرينيون بالجهة الغرب لهذا الطريق.

2.1- الطريق البري

في عام 667هـ/1268م، خرج السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، حاجا إلى مكة عبر الطريق البري الذي أعيد استخدامه، منذ ذلك الوقت¹، طريقا للحج والتجارة. وقد ازدهر هذا الطريق في العصر المملوكي، وكان موضع اهتمام سلاطين المماليك من حيث الإصلاحات، وإزالة العقبات، وحفر الآبار والبرك، وإقامة خزانات المياه، وصيانة المنشآت، وحماية أمن القوافل على طول الطريق، وتخصيص الأوقاف للإنفاق على رعاية المنشآت وصيانتها².

وذكر المقرئ أن المنادي للحج كان يقول: «يا معشر المسلمين حل موسم الحج، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد، وسيكون معه الجنود، والحيل، والجمال والزاد»³.

وبعد أن يتم الاستعداد، يخرج الركب من القاهرة في أول ذي القعدة. ولقد خرج العبدري مع الركب المصري من مدينة الفسطاط؛ حيث يتجمع الحجاج من جميع أمصار شمال قارة أفريقيا والأندلس⁴، ويسبرون إلى بركة الحاج⁵؛ فيقيمون فيها أربعة أيام. وفي عام 825هـ/1423م، في زمن سلطة الأشرف برسباي، عمّر زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش، في بركة الحاج، بستانا وساقية للماء لينتفع بها الحجاج⁶. وفي صدد الإقامة «ببركة الحاج» يذكر ابن فضل الله العمري، في «مسالك الأبصار»، أن الركب يقيم فيها ثلاثة أيام أو أربعة، ويلاحظ الجزيري أن العمري يذكر ما كان يحصل في وقته، أما زمن الجزيري وزمن والده - في أواخر العصر المملوكي - وما بعده «فلا تنقص الإقامة في بركة الحاج عن خمسة أيام، ويرحل عنها صبيحة اليوم السادس»⁷. ولقد ذكر العبدري أنه رحل من بركة الحاج في الثامن عشر من شهر شوال مستقبلا البرية الكبيرة (برية ما

¹ - الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، المقرئ، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 140هـ/2000م، ص117.

² - أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص80، والمسالك والممالك لابن خرداذبه، ص100.

³ - الذهب المسبوك، ص117.

⁴ - الرحلة، العبدري، ص153.

⁵ - تسمى بركة الحاج أو بركة الجب أو جب عميرة، وهي قرية إلى الشمال الشرقي من القاهرة، وتعتبر مركز توافد الحجاج من مصر والأندلس والمغرب وإفريقيا، يجتمعون عندها في الذهاب والإياب. وهي من أنشط الأسواق في بداية الطريق المصري، حيث يعرض فيها العديد من البضائع، (البلدان للبعثوني، ص98، والأعلاق النفيسة لابن رسته، ص166، والخطط للمقرئ، 489/1).

⁶ - السلوك للمقرئ ج4 ص2، 696، وبتائع الزهور، ابن إياس، 1196/3.

⁷ - الدرر الفرائد، الجزيري، ص449.

بين الحجاز ومصر). ويؤكد الجزيري ما ذكره العبدري في مسألة وقت خروج الركب، فيحدد ما بين 14 و20 من شهر شوال.

ومن بركة الحاج إلى عجرود¹ خمس مراحل، وفيها يلتقي أهل السويس بالحجاج للمتاجرة، وبها بئر قديمة، ولكن ماءها لا يصلح للشرب. وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون، أنشأ سيف الدين² الجوكندار³ الخان⁴ الذي في عجرود، وأصلح السواقي التي في الطريق⁵. كما جدد السلطان الغوري الخان نفسه، وأنشأ أبراجاً، وجعل جماعة من المماليك لحراسة الحجاج والتجار، يقيمون سنة ثم يغادرون ويأتي غيرهم⁶.

وكانت عَجْرُود مركزاً من مراكز البريد، ومنهلاً من مناهل درب الحاج على بُعد خمس مراحل من بِرْكَة الحاج. فهي تأتي، في الترتيب، بعد بركة الحاج، والبُؤْبُ، والطليحات، والمنفرح، ومراكم موسى؛ وتعد عَجْرُود المنزل الثالث على درب الحاج المصري بعد بِرْكَة الحاج والبُؤْبُ أو الدار الحمراء «الدار البيضاء»، وبينها وبين بِرْكَة الحاج مسافة أربعين ميلاً. وبِرْكَة الحاج تبعد بدورها عن الفسطاط بمسافة ستة أميال⁷، وعن القاهرة بمقدار بريد، وعلى بُعد أربعة فراسخ أو ثمانية أميال شمال غرب مدينة السويس، وبالتالي تبعد عَجْرُود عن الفسطاط بمسافة ستة وأربعين ميلاً، وهي الآن تقع على بُعد 122 كم إلى الشرق من القاهرة، وعلى بُعد 20 كم شمال غرب السويس.

وعَجْرُود أول المناهل على هذا الدرب بعد بِرْكَة الحاج، ومحطة من محطات البريد ما بين القاهرة وبلاد الحرمين الشريفين، وبها أول خان تم تشييده على هذا الدرب خلال العصر المملوكي. وكانت محطة التوديع

¹ - تبعد عَجْرُود عن جب عميرة «الجب، البركة، «بركة الحاج» بمنزلة أو ثلاثة أو أربعة منازل، وجب عميرة يبعد بدورها عن مصر «الفسطاط» بمنزلة، وكان هذا في بداية نشأة الدرب خلال الفترة الإسلامية المبكرة وحتى القرن 12هـ/12م. ويأتي ترتيب عَجْرُود بعد البُؤْبُ ومنزل ابن بُنْدُقَة عند ابن خرداذبة، وابن قدامة، وابن رسته. أما عند اليعقوبي فيبعد منزل واحد وهو القَرْقَرَة، وعند المقدسي على ثلاث مراحل من بِرْكَة الجب. وعند الحربي (ت 825هـ/898م) أو القاضي وكيع (ت 306هـ/918م) بعد أربعة منازل وهي: الحفر، البُؤْبُ، منزل أم سعد، ثم عَجْرُود.

² - هو الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله الجوكندار، أصله من أسر أيام الظاهر بيبرس. لما دخل بلاد الروم عام 676هـ/1277م، ولي نيابة حاة، ثم نيابة السلطنة بقلعة الجبل. توفي عام 711هـ/1311م، (السلوك للمقريزي، ج2 ق3 ص102، والمهمل الصافي لتغري بردي، 298/3)

³ - الجوكندار يتكون من لفظتين فارسيين: الأول بمعنى العصا المنحنية أو المحجن أو الصولجان، والثاني بمعنى ممسك، وبذلك، يصبح المعنى «ممسك عصا الصولجان»، وكان يطلق هذا اللفظ على موظف محمته حمل الجوكان للسلطان، في أثناء لعبه البولو في عصر المماليك. (انظر الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، لحسن باشا، 1/376).

⁴ - الخان: من المنشآت التجارية المهمة في العصور الوسطى، وهو عبارة عن مبنى معد لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم، (العصر المملوكي، سعيد عاشور، ص433، وطريق التجارة، نعم زكي، ص376).

⁵ - بدائع الزهور، ابن إياس، 4/129-152.

⁶ - صبح الأعشى للقلقشندي، 14/386، ودرر الفرائد للجزيري، 2/1320، والحققة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز للنابلسي، ص293.

⁷ - الميل يساوي 1848م، والفرسخ أربعة أميال (5544م)، والبريد العربي أربعة فراسخ (22176م) (انظر الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي،

بالنسبة للمشيعين والملاقة للعائدين من الحج. وكان يرجع منها المرضى من الحجاج والمنقطعين، وفيها يخزن الطعام ليجده الحاج في الذهاب والإياب، وبها تترك الأزودة والأمتعة إلى الرجوع، وخاصة المتعلقة بالحجاج المغاربة الذين يرافقون قافلة الحاج المصري، وكانت مكان مبيت قافلة الحاج للاستراحة، وتوزيع المأكولات على الحجاج والعلف على الدواب، وترتيب القافلة على النظام المعروف بالتقطير والتعقيب في السير. كما كانت أحد الأسواق الكبيرة التي تُنصب في موسم الحاج ليتزود منه الحجاج بما يحتاجون إليه، حيث يأتي إليه التجار من الأماكن القريبة من عَجْرُود، كالسويس وبلْبَيْس وغيرها، وكانت من مراكز التمكيس على درب الحاج المصري في بعض الفترات، وخاصة في العصر العثماني؛ شأنها في ذلك شأن بركة الحاج ونخل وأيلة العقبة، حيث تعقد الأسواق في المناهل الكبيرة على طول درب الحاج المصري.

أما عن الدور الحضاري والتاريخي لعَجْرُود، فلم يرد لها ذكر في المصادر أو الوثائق القديمة فيما قبل الإسلام. فهي لم تكن، في يوم من الأيام، على طريق تجاري، أو طريق القوافل قبل العصر الإسلامي، ولم تشتمل على أي آثار قديمة. ولا يوجد اسمها في المصادر التي تناولت مدن سَيْنَاء بالبحث والدراسة، ولعل ذلك راجع إلى شهرة وازدهار بحر القُلُزُم آنذاك، لكونه كان ميناءً تقع عليه، لكنها أهملت فيما بعد وحل محلها السُّوَيْس، وكانت بمثابة ميناء ميرة الحرمين منذ الفتح الإسلامي لمصر، كما أنها كانت خلال العصر الفاطمي الميناء المختص بإرسال كسوة الكعبة المشرفة وميرة الحرمين وغيرها إلى بلاد الحجاز.

ويتمتع الركب بعد عَجْرُود إلى «نخل»، التي يوجد بها ماء أفضل من الذي قبله، وهي من المحطات التجارية المهمة، وبها برك وخزانات مياه¹.

أما نخل «البرج، القلعة، الخان»، فهي منهل من المناهل الكبرى على درب الحاج المصري، ومركز من مراكز البريد ما بين القاهرة وبلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين بمكة المشرفة والمدينة النبوية. وتعتبر المنهل الثاني مما يلي عَجْرُود بعد الخروج من بركة الحاج؛ حيث يتم الوصول إليها في اليوم السادس من البركة واليوم الثالث من عَجْرُود، كما أنها المنهل الثالث على هذا الدرب إذا أخذنا في الاعتبار منهل بركة الحاج أولها وعَجْرُود ثانيها، ونخل ثالثها، بل إنها أهم وأكبر منهل على درب الحاج المصري داخل صحراء شبه جزيرة سيناء، كما أنها نقطة تلاقي عدة دُروب، منها: درب الشام المشهور في المصادر التاريخية والجغرافية بطريق صُدْر وأيلة «صلاح الدين الحربي بوسط سيناء» الذي يساير في أجزاء كبيرة منه مسار درب الحاج المصري، وذلك في أغلب منازلها ومناهلها داخل شبه جزيرة سيناء. وطريق الحجاج المسيحيين من غزة إلى دير سانت كاثرين والعودة؛ ولهذا لقيت نخل عناية كبيرة، فهي عامرة منذ فترة؛ لكونها منهلًا على درب الحاج المصري منذ الفترات التاريخية

¹ - حسن المحاضرة، السيوطي، 310/12، والحقيقة والمجاز، النابلسي ص 293.

المتعاقبة، مروراً بالعصر المملوكي؛ عصر ازدهار درب بصفة عامة، ونُخل بصفة خاصة، بداية من عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، مروراً بعهد الناصر محمد بن قلاوون، وصولاً إلى الأشرف قانصوه الغوري؛ صاحب أول منشأة غير مائية بنخل جاء ذكرها في المصادر التاريخية المعاصرة وهي البُرج، الذي تمت توسعته بمضاعفة مساحته عما كانت عليه في عهد الغوري، وذلك في العصر العثماني زمن السلطان سليمان القانوني، وأصبح قلعة.

كما أن نخل كانت مكان لمبيت قافلة الحاج، وبها يُعقد سوق ضخّم على غرار ما يحدث ببركة الحاج وعجود والعقبة وبقية المناهل على طول درب الحاج المصري، حيث كان يُؤتى إليه من مصر وبلاد الشام وغزة وقطيا بجميع الأصناف لتتزوّد منه قافلة الحاج باحتياجاتها، سواء في رحلة الذهاب أو العودة من الحج.

كما كانت نخل، خلال القرن 7هـ/13م من خلال رحلة ابن رشيد السبتي تقع ما بين عقبة أيلة والقُباب. وهي من حيث الموضع تشغل منطقة منبسطة سهلية تحيط بها الجبال من ثلاث جهات باستثناء جهة الجنوب. وتعد نخل، حسب أبلغ وصف لحالتها بعد هجر درب الحاج المصري لطريقه عبر شبه جزيرة سيناء في بداية القرن العشرين، «القلب الميت» على حد وصف جمال حمدان لها بقوله: «قلب سيناء الميت»، لأن درب الحاج كان السبب الرئيس في إحيائها في هذه المنطقة البرية، وهو الذي أهلّها في يوم من الأيام لأن تكون المركز الإداري لكل شبه الجزيرة. وقد انتقل هذا المركز إلى العريش بعد هجر درب الحاج، وتشديد سكة حديد مصر - فلسطين في سنة 1916م.

وتعتبر نخل المحطة الرئيسة على درب الحاج المصري داخل سيناء، ومنهلاً ممّماً من مناهل هذا درب، ولهذا حظيت بالعناية بمنشآتها منذ أيام المنصور قلاوون حسب أقدم عمارة تمت بالمنطقة حتى الآن، وحتى نهاية أسرة محمد علي باشا، إذ توجد بها مجموعة منشآت مختلفة الوظائف، منها: المنشآت المائية المختلفة، والحربية، والتجارية، والدينية، والجنازية...

ومن نخل إلى القُلْزُم¹، وهي مدينة ساحلية على البحر الأحمر، يوجد بها التجار الذين يجهزون الميرة من مصر إلى الحجاز واليمن، وبها وكالات، ومرسى المراكب، وبها تصنع السفن المستخدمة في البحر الأحمر من حبال الليف، ويفصل القلزم عن مصر صحراء واسعة وجبال.

¹ - القلزم: (البلدان لليعتوي، ص 98، والمسالك والمالك للإصطخري، ص 20، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، 388/4)

ومن القلزم من يسير الحجاج في برية ست مراحل حتى يصلوا إلى عَقَبَة أَيْلَة¹، التي كانت تُعرف بجبل بُراق، أو بصاق عند أبي عُبَيْدٍ البكري الذي عرفها بقوله: بُراق بضم أوله لا تدخله الألف واللام ولا ينصرف، جبل بين أَيْلَة والتَّيَّة.

وكان يعرف، خلال العصر الوسيط، باسم النقب ورأس عَقَبَة أَيْلَة، ومنها اختصر الاسم الحالي رأس النقب. ففي العصر الأيوبي أُشير إليه، في القصيدة التي نظمها عماد الدين الأصفهاني عندما كان مرافقاً لصلاح الدين في سفرته من دمشق إلى القاهرة سنة 576هـ/1181م باسم «العَقَاب»، وذلك على صفة جمع عَقَبَة لكثرتها وتعددتها، وذلك بقوله:

وَرَدْنَا مِنَ الرِّثْيُونِ جِسْمِي وَأَيْلَة وَجِزْنَا عَقَابًا كَانَ مَسْلُكُهَا وَغَرَا

وقد عُرفت أولاً بِسَطْحِ عَقَبَة أَيْلَة، ثم العَقَبَة، وتُعرف اليوم باسم «رأس النقب» و«جبل النقب»، لوجود نقب للحاج فيه.

وعَقَبَة أَيْلَة منطقة يحدد موقعها بصفة عامة فيما قبل قلعة العَقَبَة حالياً، بمسافة يبلغ طولها، حسب أقدم تقدير لها عند العَبْدَرِي عندما مر بها سنة 689هـ/1290م، بقوله: «عقبة كؤود شاقة طويلة مسافتها نحو من خمسة أميال»؛ أي ما يقارب حوالي 10 كلم.

ومن أَيْلَة يبدأ الطريق إلى شبه الجزيرة محاذيا ساحل البحر؛ فيمر بحقل²، ثم بعد أربع مراحل يصل الركب إلى مدين³، ومن مغارة شعيب إلى عيون القصب⁴. وفي عام 834هـ/1430م، حفرت بئر بإشارة القاضي زين الدين عبد الباسط بعد أن ضعفت هذه العيون؛ فعظم النفع بها⁵. والمحلة التالية المويلج⁶.

¹ - أَيْلَة: منطقة تعتبر آخر حدود مصر، وهي من المحطات التجارية، وتقام بها الأسواق العامة، ويجمع بها حجاج مصر والشام والمغرب، (انظر البلدان لليعقوبي ص 98، ومعجم البلدان لياقوت 1/292، والخطط للمقريزي 84/1).

² - حقل: من المحطات المهمة، وبها ماء عذب، وتبعد عن أَيْلَة بستة عشر ميلا، (المسالك والممالك لابن خرداذبه، ص 128، ونزهة المشتاق للإدرسي، 345/1، وحسن المحاضرة للسيوطي، 310/2).

³ - مدين: بها مغارة شعيب عليه السلام، وبها بئر ماء، وتقع بمحاذاة تبوك، (المسالك والممالك للإصطخري ص 20، والأعلاق النفيس لابن رسته، ص 166، والبلدان لليعقوبي، ص 90).

⁴ - عيون القصب: تعرف بعينونة، وبها ماء عذب جار، ويخو بها القصب الفارسي، والماء يجري بينه، لذا عرفت بعين القصب، (انظر البلدان لليعقوبي ص 199، والرحلة المغربية، للعبدي ص 161، وحسن المحاضرة، للسيوطي 311/2).

⁵ - السلوك للمقريزي، ج 4 ق 2 ص 859، حسن المحاضرة، للسيوطي، 311/2، الرحلة العياشية، ص 26.

⁶ - المويلج: بها ماء كثير حلو وآبار وبساتين ونخيل، وحسن كبير وعسكر، وبها مرسى للسفن، وسوق. (انظر صبح الأعشى، للقلقشندي، 386/14، ودرر الفرائد، 125/2، وحسن المحاضرة، للسيوطي، 311/2).

وبعد أربع مراحل من المويلح، يصل الحاج إلى الأزلم أو الأزلم¹، وبها خان وبرج بناء السلطان قانصوه الغوري عام 915هـ/1509م.

ومن الأزلم يتجه الحجاج إلى الوجه²، ومن الوجه إلى أكرى مرحلتان³، ومنه إلى الحوراء⁴ أربع مراحل. ومنها إلى نبط⁵ مرحلتان. ومنها يتجه الركب إلى ينبع النخل⁶ في ثلاثة أيام. ومنها مسيرة يوم إلى ينبع البحر، ومنها إلى الدهناء⁷ نصف يوم. ومن الدهناء يصل الركب إلى بدر في يومين⁸. ومن بدر إلى رابع⁹ في خمس مراحل، وعلى يسار طريق الركب قريبا من رابع الجحفة¹⁰.

ومن رابع يصل الركب إلى خليص¹¹ في ثلاثة أيام، وكان السلطان الناصر محمد قد أجرى الماء إليها عام 719هـ/1319م، وفي عام 801هـ/1398م، عمر قطلبك بن عبد الله الحسامي المنجي عين خليص¹². ومن

¹ - الأزلم أو الأزلم: سمي بذلك لخبائة أرضه، وكثرة أفاعيه، وملوحة مياهه، وقلة نبات أرضه، وهي المحطة الثانية والعشرون في طريق الحج، وتقع في منتصف الطريق بين المويلح والوجه، وبها سوق كبيرة، (حسن المحاضرة، للسيوطي، 311/2) والحقيقة والمجاز، للنابلسي، ص 311، ودرر الفوائد، 1251/2

² - الوجه: وهي المنزل الثلاثون من منازل الحاج المصري، وبها قلعة وأبراج وماء عذب، ولكنه قليل، وكان الحجاج إذا وصلوا إلى الوجه قد لا يجدون ماء، فيهلك أكثرهم من العطش، (صبح الأعشى، للقلقشندي، 386/14، وملء العيبة، لابن رشيد 279/5، والرحلة، للورتلاني ص 344).

³ - أكرى: واد كبير به ماء غزير وعذب، (الرحلة المغربية، للعبدري، ص 161، ودرر الفوائد للجزيري 1387/2)

⁴ - الحوراء: تقع على ساحل البحر، وفيها ماء غزير ولكنه مالح. وهي من مناهل الحجاز، بها حصن كبير، وسوق عامرة، وقوارب لصيادي السمك، وتدخل في درك أمير ينبع (أحسن التقاسم للمقدسي ص 82، ومعجم البلدان لياقوت 316/2).

⁵ - نبط: بها ماء عذب، وهي درك أمير ينبع، (درر الفوائد للجزيري، 1125/2).

⁶ - ينبع النخل: من أعظم محطات طريق ركب الحجاج. فهي أول بلاد الحجاز العامرة، يكثر فيها النخل والمزارع، وبها أسواق قائمة. وبينها وبين ينبع البحر مسيرة يوم، وكان سلاطين المماليك يرسلون إلى ينبع البحر السفن المحملة بالغلال والصدقات، وما يحتاج إليه الحاج، (انظر صورة الأرض لابن حوقل، ص 40، وأسبغ تهامة للسلمي، ص 13، ومعجم البلدان، 450/5)

⁷ - الدهناء: وهي من عمل ينبع، وماؤها طيب، وفيها زرع ونخل وأرضها سبخاء (انظر معجم البلدان، 493/2).

⁸ - بدر: قرية بها حصن ونخل وبساتين، وبها عيون، وماؤها عذب، وهي من المناهل الحجازية على بعد 155 كم من المدينة المنورة، (انظر معجم معالم الحجاز، للبلاوي، 190/1)

⁹ - رابع: قرية بها نخل وبها آبار كثيرة، تقع في وادي ممر للسيول، وبها سوق عظيمة وقت مرور قوافل الحجيج (نزهة المشتاق، 142/1، ومعجم البلدان، 11/3، ومعجم معالم الحجاز للبلاوي، 605/4).

¹⁰ - الجحفة: وهي ميقات يحرم منها حجاج مصر والشام والمغرب، وبينها وبين مكة ست مراحل، وماؤها من الآبار، وتبعد عن البحر بميلين، ويقام بها سوق، (انظر البلدان للبعقوني، ص 77، وصورة الأرض لابن حوقل ص 40، ومعجم معالم الحجاز 122/2).

¹¹ - خليص: قرية من قرى مكة بها نخل وبساتين، وفيها حصن على جبل، ويبيع أهلها البطيخ للحجاج، وبها مسجد وسوق، (وفاء الوفا للسهمودي، 101/3، ومعجم البلدان، 387/2، وصبح الأعشى للقلقشندي 387/14).

¹² - العقد الثمين للفاسي، 276/7، وتحاف الوري لابن فهد، 416/3

خليص يسير الركب إلى عسفان¹. ومن عسفان يدخل الركب وادي مر، ويسمى مر الظهران²، ومنه يتهبأ الحجاج لدخول مكة³.

2.2- الطريق البحري

أ. الطريق البحري الأول

جرت العادة أن يجتمع حجاج مصر والمغرب بالقاهرة، ومنها يتجهون بالسفن عبر نهر النيل إلى أسيوط الواقعة في الصعيد الأعلى جنوب مصر⁴، ومنها في النيل إلى قوص⁵، ومنها يركبون نهر النيل إلى أسوان⁶، ومنها تبدأ رحلة صحراوية شاقة، يوجد بها الماء متباعدة ومالحا، ومن أسوان إلى عيذاب⁷ تدفع ضريبة مقدارها ثمانية وعشرون درهما عن كل حاج⁸.

يقول المقرئ في خطته: «إن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب»⁹. ويعد ابن جبير أول المعاصرين لتلك الحقبة من الأندلسيين، الذي تقصي طرق الحجاج المصرية عن طريق البحر، وذلك لأنه عاينها بصورة جلية تعطي للباحث زخا معلوماتيا في وصف القوافل التجارية وقوافل الحج التي سلكت هذا الطريق خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري. ونستطيع أن نتبين من رحلته المحاور المهمة التي تستدعي انتباه أغلب الدارسين لتلك الفترة والتي بعدها، لاسيما وأنه

¹ - عسفان: بلدة عامرة تقع شمال مكة، وسميت بذلك لتعسف السيول بها، وبها نخل وزرع وحصن عتيق (درر الفرائد للجزيري، 1462/2، ومعجم البلدان، 121/4، وحسن المحاضرة للسبوطي، 311/2).

² - وادي مر: ويسمى مر الظهران وهو اسم الوادي، وبينه وبين مكة نصف يوم، ويسمى الآن «وادي فاطمة»، وبه حصن ومنازل وزرع وغيون ماء، ومنه تجلب الفواكه لمكة، (أخبار مكة للفاكي، 98/5، ونزهة المشتاق، 345/1، وشفاء الغرام للفاسي، 163/1).

³ - درر الفرائد للجزيري، 1252/2، والحقيقة والمجاز للنابلسي، ص 319.

⁴ - المسالك والممالك لابن خرداذبه، ص 71، والبلدان للهمداني، ص 72، ومعجم البلدان للحموي، 139/1.

⁵ - قوص: وهي مدينة كبيرة عامرة، قصبة صعيد مصر، ومحطة التجار القادمين من عدن والهند والحبشة واليمن، بها أسواق وتجارة، وبها سور ونخل وأشجار، (انظر البلدان لليعتوبي، ص 193، وأحسن التقاسيم للمقدسي، ص 166، ومعجم البلدان، 413/4).

⁶ - أسوان: وهي مدينة في آخر صعيد مصر، وأول بلاد النوبة (الخطط للمقرئ، 197/1، ومعجم البلدان، 191/1).

⁷ - عيذاب: مدينة مشهورة على ساحل البحر الأحمر في الشاطئ الغربي منه، مواجهة لميناء جدة، وقد استمدت شهرتها من الدور التي قامت به باعتبارها قاعدة بحرية لتجارة الشرق الأقصى في البحر الأحمر، ومنها إلى مصر وأوربا، وهي محطة في طريق قوافل حجاج البر. وقد ازدادت أهميتها في العصر الفاطمي بسبب الأزمات الاقتصادية عام 441هـ/1049م، الناجمة عن انخفاض نهر النيل وقلة الأقوات. وقد وصفها كثير من الرحالة، مثل الإدريسي وابن جبير وابن بطوطة بأنها من أهم الموانئ المصرية على البحر الأحمر، (انظر صبح الأعشى للقلقشندي، 278/5، والسلوك للمقرئ، ج 3 ص 108، والبلدان للهمداني، ص 75).

⁸ - نزهة المشتاق للإدريسي، 134/2، والروض المطار، ص 424، والخطط للمقرئ، 197/1.

⁹ - الخطط، المقرئ، 202/1.

شهد في رحلته إلى الأراضي الحجازية الموروثات الفاطمية من اقتصادية واجتماعية ودينية، وذلك قبل أن يعالجها صلاح الدين الأيوبي.

فالرحالة ابن جبير قد حج من هذا الطريق سنة 579 هـ/1184م، وقطع المسافة بين القاهرة وجدة في نحو شهرين ونصف، في أسوأ حال من مشقات وأهوال؛ كما هو مبين في رحلته.

وتفيد إشارة ابن جبير أنه كان من الصعوبة بمكان أن يسلك الناس هذا الدرب، لكنه أفاد، في موضع آخر، أنه استخدم في أطر محدودة. فقد عاين الأمير سيف الإسلام اطلنكين بن أيوب أخو صلاح الدين في مكة، ومعه العسكر الحافل وثلة من حجاج مصر الذين اغتنموا فرصة قدومه من مصر إلى مكة عن طريق البر، الأمر الذي يسر لهم الأمن والاطمئنان في الحل والترحال. يقول ابن جبير: «وصحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر وسواها اغتناما لطريق البر والأمن فوصلوا في عافيته وسلامته»¹.

ومما يكن من أمر، فإن الطريق البري كان صعبا على القوافل التجارية والحجبة في ذلك العهد؛ لاستمرارية المعارك الصليبية في الحصون المتاخمة للحدود الإسلامية على الجانب المصري. فملكة بيت المقدس الصليبية، في عهد ملكها بلدوين الأول، قد أخذت تؤمن حدودها من ناحية الجنوب الشرقي، إذ سيطر بلدوين الأول على صحراء النقب. وشيد سنة 508 هـ/1115م حصن الشوبك، الذي سيطر منه الصليبيون على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر إلى خليج العقبة. وفي العام التالي شيد حصنا آخر في أيلة على ساحل خليج العقبة. وبذلك يكون قد أغلق الطريق البري للقوافل بين مصر والشام والحجاز، وعزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق². وبذلك استمر طريق قوص - عيذاب - جدة الطريق الرئيسي لحجاج مصر والمغرب على امتداد أكثر من مائتي سنة بالرغم من الأخطار والأهوال التي كان يتعرض إليها الحجاج في قطعهم لهذا الطريق في الذهاب والعودة³، إلى أن كانت سنة 666 هـ/1268م؛ حيث أخرج السلطان بيبرس قافلة الحج من البر؛ أي عبر شبه جزيرة سيناء، وبذلك قل سلوك الحجاج لطريق عيذاب، غير أن بضائع التجار ظلت تحمل من عيذاب إلى قوص، إلى أن أبطل ذلك بعد سنة 760 هـ/1359م بسبب خراب الصعيد⁴. إضافة إلى ذلك، يسجل لنا ابن بطوطة سلوكه إلى مصر - قوص - عيذاب، غير أنه عدل عن رأيه في آخر لحظة، وذلك لفتنة قد حصلت في مدينة عيذاب، إذ شاهد سلطان البجة يحارب جنوده الجيش المملوكي التابع للملك الناصر، الأمر الذي حدا بسلطان البجة إلى حرق جميع المراكب التي تستخدم في السفر إلى مدينة جدة؛ فتعذر السفر

¹ - المصدر نفسه، ص 108.

² - الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، ط 3، 1975 م، 319/1، 318.

³ - طريق حجاج الشام ومصر، سلمان عبد الغني مالكي، المجلة التاريخية المصرية، المجلدان 30 (1983) و31 (1984)، ص 52-53.

⁴ - الخطط، المقرئزي، القاهرة، مؤسسة الحلي، طبعة جديدة، بالأوفست، 202/1.

يقول ابن بطوطة: «ولما وصلنا إلى عيذاب، وجدنا الحدري¹ سلطان البجة يجارب الأتراك، وقد حرق المراكب وهرب الترك أمامه، فتعذر سفرنا في البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين أكثرنا الجمال منهم إلى صعيد مصر، فوصلنا إلى مدينة قوص²». المستفاد من نص لابن بطوطة أن طريق مصر - قوص - عيذاب كان مفتوحا للقوافل التجارية والحجبة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وبسبب الاضطرابات التي كانت بين سلطان البجة وسلطان مصر، بإفادة من شاهد عيان، فإن طريق البحر الأحمر أمسى غير آمن³. وهنا قرر أن يعود إلى الطريق الذي سلكه من قبل ليصل إلى الأماكن المقدسة عن طريق بلاد الشام. وعلى الرغم من أن جهة ابن بطوطة تتطابق مع الجهة التي سلكها ابن جبير عبر الدرب المصري الجنوبي، إلا أن ابن جبير كان وصفه أدق وأشمل، إذ وصف المدن والقرى المطلة على النيل واحدة تلو الأخرى، ولقد ترك لنا انطبعا على اشتغال الدرب بالقوافل المارة، مما جعل مرفأ عيذاب أكثر ازدهارا من المرافئ الأخرى طيلة تلك الفترة.

على أي حال، فقد كان القصد إلى عيذاب من قوص على طريقين على حد قول ابن جبير؛ «أحدهما يعرف بطريق (العبدین) وهي هذه التي سلكناها، وهي أقصر مسافة. والآخر طريق دون قنا»⁴. وأثناء مسيرة ابن جبير عبر الصحاري المقفرة، يذكر تزود القوافل بالماء من موضع إلى آخر مع اختلاف مادته؛ فهناك ماء ملح أجاج، وماء عذب فرات سائغ شرابه للشاربين. وشتان بين هذا وذاك. وتستمر القوافل على ذلك المنوال حتى تصل إلى عيذاب في حوالي ثمانية وثلاثين يوما. إذ تستغرق الرحلة من الفسطاط إلى عيذاب حوالي ستة وخمسين يوما. فقد سار من الفسطاط في السادس من المحرم سنة 573هـ/1184م، ووصل عيذاب في الثامن من شهر ربيع الأول من العام نفسه⁵. وقد شهد ابن جبير في رحلته أن ميناء عيذاب كان من «أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تخط فيها وتقلع منها، بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، على الرغم من كونها في «صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلا ما هو مجلوب»⁶.

¹ - الحدري: نسبة إلى قبيلة حدرب التي يذكر أنها من أصل عربي، وهي تعيش في ضواحي عيذاب، وكانت عاصمتهم على البحر الأحمر. ويجمع على (حدارب) على نحو (حضارم). رحلة ابن بطوطة، قدم لها وحققها ووضع خرائطها وفهارسها: عبد الهادي التازي، من منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ/1997م، 231/1، هامش 192.

² - رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبد الهادي التازي، 231/1.

³ - يلاحظ د. عبد الهادي التازي أنه قد وقع إيهال من الباحثة السودانية أمال إبراهيم محمد لهذه الفقرة المهمة من تاريخ الصراع الدولي حول البحر الأحمر، مركز الدراسات والبحوث، صنعاء، 1993م. انظر رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. عبد الهادي التازي، 231/1، هامش 195.

⁴ - رحلة ابن جبير، ص 37.

⁵ - راجع الرحلة، من قوص إلى عيذاب، المصدر نفسه، ص 28 - 39.

⁶ المصدر نفسه، ص 39.

وكان أهل عيذاب يستفيدون فوائد حمة مما يعود عليهم من التجارة، لا سيما مع الحجاج؛ لأن لهم «على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية، ولهم أيضا من المرافق مع الحاج إكراء الجلاب منهم وهي المراكب. فيجتمع لهم من ذلك مال كثير في حملهم إلى جدة، ووردهم وقت انقضائهم من أداء الفريضة. وما من أهلها ذوي اليسار إلا من له الجلبة والجلبتان، فهي تعود عليهم برزق واسع»¹.

وكانت حالة الحجاج الوافدين مزرية في عيذاب؛ ذلك لأنهم يقاسون خلال إقامتهم فيها من شظف العيش، وسوء الأحوال، والإصابة بالأمراض؛ لعدم توفر الغذاء الضروري لحياة الوافد. يقول ابن جبير: «وحسبك من بلد كل شيء فيها مجلوب حتى الماء... أقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عند اشتها الطعام، فما أظلم من غنى عن هذه البلد بقوله: «ماء زقاق وجو كله لهب فالحلول بها من أعظم المكارة التي جف بها السبيل إلى البيت العتيق وأعظم أجور الحجاج على ما يكيدونه، ولا سيما في تلك البلدة الملعونة، ومما لهجه الناس بذكر قبائحها حتى يزعمون أن سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتخذها سجنًا لعفاريته»². ويضرب ابن جبير مثلا آخر من المعاناة التي كان يلقاها الحاج، أنهم يأخذون أجورا باهظة على الحجاج، كما كانوا يقومون بشحن الجلاب زيادة عن عدده، حتى إن الحجاج كانوا يجلسون بعضهم على بعض، وهذا ما كان يعبر عنه أصحاب الجلاب بقولهم: «علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح»، وهذا المثل أصبح متعارفا فيما بينهم، ويصف ابن جبير ذلك بأنه من «أحكام الطواغيت»³.

وقد أكد المقرئ مذكره أخبار ابن جبير من أوصاف وأخبار عن عيذاب بقوله: «ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، فإنهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الأجرة، ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر، بل يقولون دائما علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح»⁴. ومنذ ذلك الوقت والحجاج يلاقون الأهوال من أهل عيذاب في أخذ الأجور الباهظة! واستمر هذا الحال إلى أن أمر صلاح الدين، سنة 582هـ/1186م، أهالي عيذاب الذين كانوا يتحكمون في نقل الحجاج برفع زيادة إيجار الجلاب، كما أنه أبطل المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج، وأجزل في الهبات والعطايا لأهل عيذاب⁵.

¹ - المصدر نفسه، ص 40

² - المصدر نفسه، ص 43.

³ - المصدر نفسه، ص 41 - 42.

⁴ - المخطوط، المقرئ، 203/1.

⁵ - هجاج مصر والشام، عبد الغني، المجلة التاريخية المصرية، م 30 - 1983، م 31 - 1984، ص 56.

وكانت توجد بالقرب من الشاطئ جزيرة تسمى (عائقة السفن)؛ كانت ترسو الجلاب بها، وينام الحجاج فيها ليلة، ثم يقلعون في الصباح التالي. وكانت الجلاب تسير ببطء وحذر شديدين خوفاً من ارتطامها بالشعاب إلى أن ترسو بمرسى يعرف ب (أبحر)، وهو على بعد يوم من جدة. وهذا المرسى من أعجب المراسي وضعا، ذلك بأن خليجا من البحر يدخل إلى البر ويطوف به من كلتا حافتيه، فترسو الجلاب في قراره¹. ومن ثم تقلع الجلاب إلى ميناء جدة بريح فاترة؛ لأن الرياح إذا اشتدت تحول دون دخول الجلاب للمرسى، لأن دخوله صعب المرام، بسبب كثرة الشعاب والتفافها. ولكن ابن جبير أبصر من صنعة أولئك الرؤساء في التصرف بالجلبة أثناءها امرأ ضخماً، حيث يصف كيفية إدخال السفن للميناء فيقول: «يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريح الفارس للجواد الرطب الفنان السلس القياد، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه»².

وهكذا يصل الحجاج إلى جدة بعد معاناة ثمانية أيام في البحر يقاسون خلالها أهوالاً شتى. فمنها ما كان «يطراً البحر لاختلاف رياحه، وكثرة شعابه المرجانية المعترضة فيه. ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسة من مراسيه، وربما سنحت الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تحلفها فتسمع لها هذا يؤذن باليأس»³. وبعد ما كان الحجاج يصلون إلى جدة، ثمة أناس يستغلون الحجاج أبشع استغلال، يصفه ابن جبير بقوله: «وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها، ينتهبونها انتهاباً، ويسعون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن يبسر الله رجوعه إلى وطنه»⁴.

وبعد ما يدفع الحجاج المكوس، أو يضمنون بعضهم بعضاً، وتثبت أسوأهم في زمام السجل عند قائد جدة، يكون الانفصال منها إلى القرين في ليلة واحدة؛ هذا الموضع هو منزل الحجاج ومحط رحالهم، ومنه يحرمون ويقضون فيه نهارهم، ثم يسرون ليلتهم فيصبحون في الحرم، كما كان الصادر من الحرم ينزلون به، ويسرون إلى جدة.

وكان بذلك الموضع بئراً عذبة، والحجاج بسببها لا يحتاجون إلى التزود بالماء غير تلك الليلة فقط⁵. وقد جرت العادة أن يحرم الحجاج من القرين بالعمرة، ثم يلهون في طريقهم إلى الحرم وهم يلبون الله عز وجل بالحمد والثناء من كل مكان؛ فترى الأصوات تصك الأذان بالتلبية، والألسنة تضج بالدعاء وتبتهل إلى الله. يصف

¹ - المصدر نفسه، ص 44.

² - المصدر نفسه، ص 45.

³ - رحلة ابن جبير، ص 43 - 44.

⁴ - نفسه، ص 46.

⁵ - نفسه، ص 49.

ابن جبير هذه الليلة الحسناء قائلاً: «فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العقر، فهي عروس ليلة القمر، وبكر بنيات الدهر»¹.

ب. الطريق البحري الثاني

وكان هناك طريق بحري آخر في شمال البحر الأحمر هو طريق: السويس - الطور - ينبع - جدة، بحيث كان الحجاج يسبرون في طريق البر حتى ميناء الطور، ويركبون منه البحر إلى ميناء ينبع، ومنه يسبرون بمحاذاة الساحل جنوباً إلى رابغ وهو ميقاتهم، ثم يسبرون جنوباً إلى ميناء جدة، ومنها براً إلى مكة. وكان عدد الحجاج المستخدمين لهذا الطريق قليلاً بالنسبة إلى مقارنة بالطريق البري؛ نظراً لطول المسافة التي يقطعها الحجاج من شمال البحر الأحمر والخطورة التي قد تعترضهم من جراء ذلك². ولقد استعمل هذا الطريق، خصوصاً في عهد الدولة المملوكية، عند الحاجة؛ مثل إرسال المؤن والغلال لتأمين قافلة الحاج المصري. كما أن الرحالة القلصادي قد سلك هذا الطريق خلال رحلته للحج عام 851هـ³.

ثالثاً: درب الحاج الشامي

كان يخرج الركب الشامي من مدينة دمشق، بعدما يجتمع الحجاج في هذه المدينة، مستهل هلال شوال، ثم يتجهون إلى قرية تسمى الكسوة⁴ في ضواحي دمشق، ثم يرحل الركب متجهاً إلى مكان يسمى الصنمين⁵. ولما برز الركب للسفر غدوة اليوم التالي عاين ابن رشيد ذلك اليوم خروج الدمشقيين «للوداع ما يسيل الدموع، ويكاد يذهب بالقلب السليم، فكيف بالمصدوع»⁶. وبعدها يتجه الركب جنوباً إلى بلدة زرعة⁷، وهي قرية صغيرة من بلاد حوران، إلى أن يصل مدينة بصرى، وهي مدينة حوران⁸. ومن عادة الركب أن يقيم بها

¹ المصدر نفسه، ص 50.

² - رحلة القلصادي، ص 129-130.

³ - المصدر نفسه، ص 129-131.

⁴ - تقع الكسوة جنوب دمشق، وتعتبر الحلة الأولى للحجاج، ويذكر أنها سميت بذلك؛ لأن قبيلة غسان قتلت بها ملك الروم لما أتى إليها لأخذ الجزية منهم، واقتسمت كسوتهم. (انظر معجم البلدان، ياقوت، 260/4. رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبد الهادي التازي، 343/1، هامش 2).

⁵ - تقع قرية الصنمين في أوائل مدينة حوران على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب الكسوة على طريق الحاج الذي يربط دمشق بعمان. (انظر ياقوت، معجم، 441/3، رحلة ابن بطوطة، تحقيق: عبد الهادي التازي، 343/1، هامش 8).

⁶ - ملء العيبة، ابن رشيد، ص 6.

⁷ - زرعة هي أزرع الحالية على حدود الجنوب في المنطقة البركانية المسماة الجاه. (انظر رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبد الهادي التازي، 343/1، هامش 8).

⁸ - تقع بصرى جنوب شرقي (زرعة)، وهي من أرض الشام من أعمال دمشق. وهي مدينة حوران التي قيل عنها إنها قرية أصحاب الأخدود. وفي شرقي هذه المدينة بحيرة تجتمع فيها مياه دمشق، ويسير منها في صحراء رمال. (انظر رحلة ابن رشيد، تحقيق، محمد الحبيب خوجة، ص 2، هامش 4. رحلة ابن بطوطة، عبد الهادي التازي، 344/1، هامش 10، معجم، ياقوت، 310/1).

أربعة أيام ليلحق به من تخلف بدمشق لقضاء بعض حاجياته، ثم يرحل الركب إلى وادي الأزرق¹، وبعد إلى بركة زيزه². ويقيمون عليها يوماً. ويوافي ابن رشيد في تلك المنازل وفوداً من أهل الشام، وقد لاحظ اجتماع الخلق ما لا يحصىه العد، ثم ذكر حرز الركب الشامي في تلك الفترة بستين ألف راحلة دون الخيل والبغال والحمير حتى ملأ السهل والحزن³.

ومن ثم يرحل الركب إلى بركة اللجون وبها ماء جار، ثم إلى حصن الكرك⁴ الذي كان يسيطر عليه الصليبيون، الذين طالما تعرضوا لقوافل الحجاج والتجار، واستولوا عليها، وأسروا رجالها. وكان يقيم الركب خارجه بمنطقة تعرف بـ«الثنية» أربعة أيام استعداداً لدخول البرية، ثم يسيرون إلى معان⁵ آخر حدود بلاد الشام الجنوبية، ومنها إلى عقبة الصوان⁶ ثم إلى الصحراء التي قال عنها ابن بطوطة: «داخلها مفقود، وخارجها مولود»⁷.

ثم يرحل الركب إلى ذات حج⁸، وفيها ماء عذب يستسقي منه الحجاج، ثم يسير الركب حتى يصلوا تبوك⁹ أول مدن الحجاز الشمالية، وكان من عادة حجاج الشمال، على حد تعبير ابن بطوطة، أنهم «إذا وصلوا منزل

¹ - الأزرق، واد يتزود الناس منه الماء، ولهما يقيم الحجاج فيه بعض الوقت لاجتماع الناس وتلاقيهم. (انظر الدرر الفرائد للجزيري، ص 454، رحلة ابن رشيد، ملء العيبة، ص 3).

² - زيزه أو زيزا: من قرى اللقاء يزورها الحجاج، ويقام لهم سوق هناك. وفيها بركة عظيمة، وأصل كلمة زيزاء في اللغة: المكان المرتفع. (انظر: تاج العروس للزبيدي، مادة زيزا، ومعجم ياقوت، مادة زيزاء).

³ - ملء العيبة، ابن رشيد، ص 6.

⁴ - حصن الكرك: بني عام 540 هـ/1145م من ابن الصليبيين، ثم استولى عليه الأيوبيون عام 583 هـ/1188م، وأنشئت به إمارة أصبحت فيما بعد إقليماً بذاته. ويحدثنا ابن بطوطة عنه قائلاً: «هو من أعجب الحصون وأمتعتها وأشهرها ويسمى حصن الغراب، والوادي يطوف به من جميع جهاته، وبهذا الحصن يتحصن الملوك، وإليه يلجأون في النوائب» (انظر رحلة ابن بطوطة، تحقيق. د. عبد الهادي التازي، 344/1).

⁵ - معان: تقع جنوب الأردن بمقبرة من مدينة الأنباط، ومن المعلوم أن معان تقع في طرف بادية الشام ويقال أنها بوابة الحجاز ومعان مدينة قديمة يعرفها العرب منذ الجاهلية، وفيها موارد للمياه. (انظر الدرر الفرائد، ص 455. رحلة ابن بطوطة، تحقيق. د. عبد الهادي التازي، 346/1، هامش، 20).

⁶ - عقبة الصوان: تقع جنوب معان، وتسمى اليوم محطة عقبة الحجاز، وهي عديمة الماء، ولا يستطيع الحاج المكوث بها بسبب صعوبة الإقامة فيها، المعجم. (انظر ياقوت، 157/4).

⁷ - رحلة ابن بطوطة، 346/1.

⁸ - موضع بين المدينة والشام، (انظر معجم ياقوت، 204/2، رحلة ابن بطوطة، ص 111)، وهي بلدة عامرة حالياً. تقع جنوب شرق حالة عمار بنحو 16 كم. (انظر معجم المواضع، للقتاني، 86/2).

⁹ - يصفها ابن رشيد بأنها أدنى أرض الشام إلى المدينة، وأنها أرض خصبة، ويكثر بها النخيل، وتوجد بها عين غزيرة بنبت على هيئة صهريج كبير طويت جوانبه بالحجارة، يجتمع بها الماء الذي يخرج إلى حفرة كبيرة. وقد وصف ماء هذه العين بالعدوية وأما ابن بطوطة فزاد في وصفها وجود سقائين حول العين، أقيمت حولها أحواض كبيرة مصنوعة من جلود الجواميس يسقون منها الجمال ويملآن القرب. أما البلوي فقد أشار إلى خرابها بقوله: «وهي اليوم خراب»، بالرغم من وجود الماء وبعض النخيل، مع العلم أن ما بين ابن بطوطة والبلوي فترة قصيرة. (انظر ملء العيبة، ابن رشيد، ص 7-8، رحلة ابن بطوطة، تحقيق: عبد الهادي التازي، 346-347.. تاج المرفق، البلوي، 278/1).

تبوك اخذوا أسلحتهم، وجردوا سيوفهم، وحملوا على المنزل، وضربوا النخيل بسيوفهم، ويقولون: هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم»¹.

ثم ينزل الركب بتبوك أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال، والتزود بالماء للبرية الموحشة التي تقع ما بين العلا وتبوك. ثم يرحل الركب من تبوك، ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية؛ فيمرون بالوادي الأخضر كأنه «وادي جهنم»، وكان قد أصاب الحجاج في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي هبت؛ فحفت المياه حتى وصلت شربة الماء إلى ألف دينار، ولم يستفد منها مشربها وبائعها؛ لأن كليهما قضى نحبه، وكتب ذلك في بعض صخر الوادي.

ومن هنالك ينزل الركب إلى بركة المعظم التي تنسب إلى الملك المعظم من أولاد أيوب، حيث كان يجتمع بها ماء المطر في بعض السنين، وتبقى جافة لا ماء فيها في البعض الآخر. ثم يكون الوصول في اليوم الخامس من رحيلهم من تبوك إلى بئر الحجر - حجر ثمود²، وهي منطقة كثيرة الماء، ولكن لا يذكرها أحد من الناس رغم شدة عطشهم اقتداء بما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما مر بها في غزوة تبوك؛ إذ أسرع براحلته، وأمر أن لا يسقى منها أحد؛ لأن بتلك المنطقة ديار ثمود منحوتة في جبال من الصخر الأحمر لها عتب منقوشة يظن رائيها حديثة الصنع. ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هناك³، ومنها يشرف الركب على العلا التي تتبعد عنها مسيرة نصف يوم، وبالعلا ماء أحساء كثير يجري بين الرمال فأتاح لأهلها زراعة النخيل وبعض المزروعات الأخرى؛ فأصبحت قرية كبيرة انتشرت فيها العديد من الدور، وأقيم بها حصن، وكان يقيم الحجاج بها أربعة أيام يتزودون منها بما يحتاجونه بقية الرحلة، ويغسلون ثيابهم، ويتركون الفائض من حاجياتهم من الأزواد إلى حين قفولهم من الحج. واشتهر أهلها بفضلهم وأمانتهم، وإليها كان يصل التجار النصارى من الشام ولا يتعدونها⁴.

¹ - رحلة ابن بطوطة، 347/1.

² - حجر ثمود يسمى اليوم «مدائن صالح»، وهو بلد حصين بين الجبال، وبه بيوت منقورة في الحجر، وبها بئر ثمود. وإلى هذا يشير القرآن الكريم: (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً كَبَرِهِنَّ) [سورة الشعراء، الآية: 149]، وإلى الناقة والبئر في قوله عز وجل: ﴿لَهَا شَرِبَتْ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ تُنْفَخُ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 155]، (انظر معجم ياقوت، مادة حجر، وملء العيبة، ص 13، هامش 43، ورحلة ابن بطوطة، 348/1، هامش 29).

³ - تاج المفرق، البلوي، 278/1.

⁴ - ملء العيبة، ابن رشيد، ص 15، رحلة ابن بطوطة، 348/1، تاج المفرق، البلوي، 278/1.

ويرحل الركب من العلا فيصلون في اليوم التالي لرحيلهم وادي العطاس¹، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة، وكانت قد هبت على ركب الحجيج في بعض السنين فلم ينج منهم إلا اليسير. ثم ينزلون منه إلى هدية وهي تقع في آخر وادي العطاس مأوها أحساء، وصف بمرارته، يستخرج بواسطة الحفر. وفي اليوم الثالث يصل الركب إلى المدينة المنورة².

ومن فور وصول الركب إلى المدينة، يبادر أهلها باستقبال الحجيج بالحفاوة والتكريم. وفي هذه الأثناء يصف لنا ابن رشيد هذا الاستقبال الحافل بقوله: «وفي عشي يوم السبت الثامن والعشرين، تلقينا قريب العصر أهل المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، مبشرين بالوصول إلى حفرة المصطفى الرسول ﷺ، وجالبين من تمر المدينة ما يحتفون به القادمين ملتسبين وفدهم. وقد صنعوا عصيا في أطرافها أوعية صغار، فيجعلون فيها شيئا من التمر ويناولونه أهل القباب المستمرة من بين سطورها، فيعطى كل أحد ما تيسر له منه. ويدفعون إلى الركبان والمشيان أيضا من ذلك على حكم التحفة والهدية، فيحسن كل على قدر وجده، ويقسمه الناس بينهم متبركين مستبشرين. ولقد رأيتهم يحنكون به الأطفال الصغار التماسا للبركة»³. وبعد ذلك يقلع الركب قاصدا مكة سالكا الطريق من المدينة المنورة إلى مكة، لكن مما تجدر الإشارة إليه أن الرحالة اختلفوا في طريقهم من مكة إلى المدينة؛ فبعضهم نظرا لوفرة الوقت بدأوا بالمدينة ثم مكة، ومن زاحمهم الوقت فينطلقون مباشرة إلى مكة، وفي عودتهم يبرون بالمدينة، ومن الرحالة الذين سلكوه قدوما وقفولا كالعبدري⁴. وبلتقي طريق الساحل وطريق الداخل في بدر حيث يجتمع به ركب حجيج الشام ومصر، ويسيران مجتمعين إلى أن يصلوا مكة المكرمة⁵. على أي حال، كان ركب الحجيج يتمتعون بزيارة المدينة المنورة ويطعمون فيها أياما عدة، ومن ثم يخرجون إلى وادي العقيق على حافة ذي الحليفة⁶، الذي يبعد عن المدينة بخمسة أميال، ومنه يحرم حجاج المدينة وحجاج الشام اقتداء برسول الله ﷺ عندما أحرم منه قاصدا الحج. وبعد الإحرام، يبدأ الحجيج في

¹ - لم نجد له ذكرا في المصادر، ولربما يكون وادي القرى الذي تحدث عنه ابن رشيد عندما وصفه في الطريق وقال أكثره خراب. (انظر ملء العيبة، ابن رشيد، 16/5).

² - رحلة ابن بطوطة، 348/1. تاج المرق، البلوي، 279/1.

³ - ملء العيبة، ابن رشيد، 16/5.

⁴ - الرحلات المغربية والأندلسية، ص 320.

⁵ - تاج المرق، البلوي، 295/1.

⁶ - ذو الحليفة: تبعد عن المدينة مسافة خمسة أميال أو أكثر. فيها مسجد لم يتطرق الرحالة إلى وصفه، واعتاد أهل المدينة اقتداء بعمل النبي ﷺ أن يجرموا من ذي الحليفة. وهو منتهى حرم المدينة. وبالقرب منه وادي العقيق. وأضاف ابن رشيد أن ذا الحليفة تعرف ببئر علي. (انظر الرحلة لابن جبير، ص 143. ورحلة العبدري، ص 201، وملء العيبة لابن رشيد، 71/5. رحلة ابن بطوطة، 361/1. تاج المرق للبلوي، 295/1).

التلبية عبر السهول والجبال حتى يصلوا شعب علي τ ، ويواصلون حتى يصلوا بئر ذات العلم أو الروحاء¹، والتي يقال إن عليا بن أبي طالب قاتل الجن بها².

ومنها يسير الركب إلى وادي الصفراء³. وبعدها يشقون هذا الوادي، ثم يرحلون إلى بدر حيث يلتقون مع الركب المصري، ثم يواصلون سيرهم إلى بقاع صحراء البرزء ثم إلى رابع ثم إلى عقبة السوق، ومنها إلى خليص. ومن هذه الأخيرة يواصلون سيرهم حتى يصلوا بطن مر أو مر الظهران ثم يكون الاتجاه في آخر الأمر إلى مكة والحرم. وهذا ما بيناه سالفًا في وصف درب الحاج المصري.

خريطة رقم 12: درب الحاج الشامي⁴.



1 - الروحاء: موضع يقع بين مكة والمدينة، وهو من ديار حرب، فيه بئر معروفة قديماً باسم «بئر الروحاء»، وكان النبي ﷺ ينزل بها؛ إذا أراد العمرة أو الحج، أو عند رجوعه من بعض الغزوات، وسميت الروحاء لانفتاحها ورواحها. (انظر معجم ياقوت، 76/3، وفاء الوفا للسهمودي، 4/1222. معجم معالم الحجاز: للبلادي، 85/4).

2 - ربما الرحلة عند نقلهم هذا الخبر لم يتحققوا منه. فالذي قاتل الجن عند ذلك البئر هو عار بن ياسر حسب رواية الأحنف بن قيس أثباتا السهمودي فأخبر عن بئر ذات العلم بأنه تجاه الروحاء، يقال إن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه قاتل الجن بها وهي بئر عميقة. وإن هذه البئر تقع ببذي الحليفة، ويسمىها العوام بئر علي، ونسبها إليه غير معروفة عند أهل العلم. (انظر وفاء الوفا للسهمودي، 4/ 1139-1195. غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة، لبدر الدين حنفي، ص 147).

3 - الصفراء. يذكر ابن جبير أنه يوجد بها حصن مشيد، وتتصل به حصون كثيرة. وفي رحلة ابن رشيد، أن الصفراء واد فيه خصب ونخل وزرع وبطيخ وقطان (الحبوب). (انظر الرحلة، ابن جبير، ص 142. وملاء العتبة، 5 ابن رشيد، /74).

⁴ - رحلة ابن بطوطة بتحقيق الدكتور عبد الهادي التازي مع مستدرجاتها، 1/341. (مع بعض التعديل)

رابعاً: درب الحاج العراقي

كان حجاج المشرق (العراقيون، والخراسيون، والأتراك ومن على وجهتهم) يجتمعون في مدينة بغداد، استعداداً لأداء مناسك الحج. وبعد أن يجتمع الحجاج في هذه المدينة يتجهون إلى مكان يسمى زريزان¹، ثم يسير الركب مختزلاً القرى الواقعة على نهر الفرات التي تكون ما بين بغداد والحلة، وقرى هذه الطريق من بغداد إلى الحلة موصوفة بأنها من «أحسن الطرق وأجملها، في بسائط من الأرض وعماير، وتتصل بها القرى يمينا وشمالاً، ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها، فحريتها لا حد لاتساعه وانفساحه، فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مراح انبساط وانفساخ»²، وعندما يصل الركب مدينة الحلة³ على الفرات، يعبرون الجسر المعقود على جوانب شطيه، وكان يقع عليه التزام شديد، الأمر الذي يؤدي إلى سقوط بعضهم في النهر فيغرق، كما حدث عند عودة الحجيج سنة 579 هـ / 1184 م⁴.

ثم يواصل الركب سيره حتى يصل مدينة الكوفة،⁵ وبعدها يتجه الركب إلى مدينة النجف⁶، ثم يمر الركب بمدينة القادسية⁷ ومن هنا يتجه إلى الرحبة وهي قرية بها عين ماء تنبع من أعلاها، كان يبيت الحاج بالقرب منها. ثم يجتاز الركب العذيب وهو واد خصيب تكثر فيه العيون والعمارة بين القادسية والمغيثة وهو حد العراق في العصر الوسيط، وكان من منازل حاج الكوفة⁸ ثم ينزل بمنارة القرون، وهي منارة في بيداء الأرض، لا بناء حولها⁹ وإزائه مصنع عظيم مملوء بالماء، ثم يسير إلى آثار بناء يعرف بالقرعاء منه مصنع ماء، وله ستة مخازن - وهي صهاريج صغيرة - تؤدي الماء إلى المصانع، ومن كثرتها حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا

¹ - زريزان: هي من أحسن قرى الأرض، وأجملها منظراً، وأوسعها ساحة، وأوسعها اختطاطاً ومن فضائل هذه القرية أن بالشرق بمقدار ونصف مشهد سلمان الفارسي رضي الله عنه، (الرحلة، ابن جبير، ص 104-105).

² - المصدر نفسه، ص 162.

³ - الحلة أسست عام 496هـ/1102م من لدن شيخ عربي شيعي: صدقة بن منصور بن ديبس بن علي، كمر لإمارة عربية. (رحلة ابن بطوطة 56/2، هامش 176).

⁴ - الرحلة، ابن جبير، ص 163.

⁵ - الكوفة، يحدثنا ابن بطوطة فيصفها على أنها من المدن الكبيرة، وكان قد غلب عليها الخراب في العصر الأيوبي بسبب الاعتداءات المتكررة من قبيلة خفاجة المجاورة لها. (الرحلة، ابن جبير، ص 160 - 161، رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. عبد الهادي النازي، 54/2، هامش 166).

⁶ - النجف: مدينة فيها مشهد الإمام علي أبي طالب رضي الله عنه، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة، من أحسن المدن العراقية، (انظر رحلة ابن بطوطة، 421/1، رحلة ابن جبير، ص 160).

⁷ القادسية، كانت موقعا للمعركة الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون عام 15هـ/637م تحت قيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رحلة ابن بطوطة، 416/1. وقد اكتفى ابن جبير بوصفها بأنها كبيرة فيها حدائق من النخيل ومشاع من ماء الفرات. (انظر الرحلة، ابن جبير، ص 160).

⁸ - المصدر نفسه، ص 160، رحلة ابن بطوطة، 416/1، هامش 264.

⁹ - المصدر نفسه، ص 160، رحلة ابن بطوطة، 415/1.

تضبطها على حد تعبير ابن جبير¹. وبعدها ينزل الركب بموضع يعرف ببلورة به صهاريج الماء يستسقي منها الحجيج ويسقون أبلهم، ثم يواصل سيره حتى يصل إلى واقصة²، وكان أهل الكوفة يخرجون للقاء الحاج بها، حاملين إليهم الدقيق والخبز والتمر والفواكه، ويهتفونهم بسلامة العودة³. ثم يسير الركب عبر الصحراء بطريق وعرف فيه من المصانع الكثيرة، وما من مصنع إلا وفي جانبه قصر مبني من قصور الأعراب، واعتبرها ابن جبير من باب الاعتناء بسبيل وفد الله⁴ فيجتاز العقبة بعقبة الشيطان ويبيت بالقرب من صهرج ماء قريب من تلك العقبة، ومن ثم يتجه الركب فيمر على الهيثمين ومنها مصنعان للماء ثم إلى زمالة⁵ وهي قرية معمورة وفيها قصر من قصور الأعراب ومصنعان للماء وآبار، ومن مناهل الطريق الشهيرة⁶، ويواصل سيرة حتى يحل بموضع يعرف بالتناير به صهرج ماء كان يبيت الركب بالقرب منه.

وبعد أن يتجاوز الركب الشقوق يمر بموضع يسمى بركة المرجوم⁷ ومنه يسير إلى الثعلبية، ثم يواصل الركب سيره حتى يصل إلى موضع يعرف بزروود وهي وهذه (منخفض) في بسيط من الأرض فيها رمال منهالة ومياهه غير عذبة، وكان الحجيج يتركونه إلى موضع يعرف بالأحفر، وهو المكان المشهور عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين⁸.

وبعد مسيرة يوم ونصف يصل الركب إلى فيد⁹. حيث كان الحاج يتركون بعض زادهم حين وصولهم من بغداد إلى مكة، فإذا عادوا وجدوه، وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد.

وبعد ذلك يحل الركب في وادي الكروش، فيقيمون فيه يومهم بالرغم من عدم وجود الماء به، ثم ينزلون جبل الخروق، ويسيرون منه إلى الموضع المعروف بسيرة، وهي موضع معمور، الماء فيه آبار كثيرة إلا أنها

¹ - الرحلة، ابن جبير، ص 159.

² - واقصة، وهي وهذه من الأرض منسحة فيها مصانع للماء مملوءة، وقصر كبير بإزائه أثر بناء. وهي معمورة بالأعراف، وهي آخر مناهل الطريقة، ومنها إلى الكوفة مسيرة ثلاثة أيام. (الرحلة، ابن جبير، ص 9، رحلة ابن بطوطة، 415/1).

³ - الرحلة، ابن جبير، ص 159. رحلة ابن بطوطة، 415/1.

⁴ - المصدر نفسه، ص 159.

⁵ - ذكرها ابن بطوطة بلفظ (زمالة) لعلها (زبالة) كما ذكرها ابن جبير. الرحلة، ص 158.

⁶ - رحلة ابن جبير، ص 158-179. رحلة ابن بطوطة، 415/1.

⁷ بركة المرجوم، يحدثنا ابن بطوطة بأنها مشهد على الطريق عليه كوخ عظيم من حجارة وكل من مر به رحمه، يذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فساد مع الركب يريد الحج، فوعدت بنه وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة، يبدو أن الحكاية أخذت من رحلة ابن جبير. فقال «أن أحد الملوك رحمه لأمر استوجب ذلك». (انظر رحلة ابن جبير، ص 158. رحلة ابن بطوطة، 414/1).

⁸ - جميل وبثينة العذريين، الشاعر جميل وهو من قبيلة عذرة، والذي أنشأ الشعر المعروف باسم الشعر العذري، أغلبه كان موجهاً إلى حبيبته بثينة. (انظر رحلة ابن جبير، ص 157. رحلة ابن بطوطة، 414/1، هامش 250).

⁹ - فيد: تقع في نصف طريق مكة من الكوفة، يودع فيها الحاج أزوادهم وما يتقل من أمتعتهم عند أهلها. (انظر المعجم للحموي).

زعاق¹. ثم يتجه الركب إلى موضع يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة، وبعدها سار الركب إلى ماء يعرف بماء العسيلة حيث يقطع بذلك الركب أرض نجد إلى تهامة فيحلون بوادي العروس فيتزودون بالماء بعد أن يحفروا في الأرض بئرا فينبع منها ماء عذب معين، يروي الأعداد الكبيرة من الحجيج التي لا يحصى لها عدد مع جمالها التي تنيف على عددها.²

وبعد استصحاب الماء منها لمسيرة ثلاثة أيام يصل إلى المدينة المنورة³ فيقوم بزيارة قبر النبي محمد ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وبعد انقضاء أيام معدودة يواصلون سيرهم إلى مكة المكرمة. خريطة رقم 13: درب الحاج الشامي⁴.



¹ - زعق الماء والطعام - زعوقة - كان مرا غليظا لا يطاق شربه.

² المصدر نفسه، ص 154.

³ المصدر نفسه، ص 15. رحلة ابن بطوطة، 412/1.

⁴ - رحلة ابن بطوطة بتحقيق الدكتور عبد الهادي التازي مع مستدركاها، 341/1. (مع بعض التعديل)

خامساً: الصعوبات والأخطار التي واجهت الحجاج

كثيرة هي العمليات المتواصلة التي شنت على قوافل الحجيج في الفترة المربنية التي نحن بصدددها. وكل تهاون في مراقبة الطرق لم يكن يؤدي إلى اختلال الأمن، وتعرض القوافل للنهب والسلب فحسب، بل إن المدن أصبحت عندئذ مكددة بهجمات قطاع الطرق والأطراف المناهضة للسلطة الحاكمة بين الحين والآخر. وعلى العموم، فقطع الطرق يعني وجود أزمة بطالة أو شح موارد بالنسبة لقطاع الطرق، وربما كان يعني أيضاً عملاً سياسياً، حيث تقوم هؤلاء بفرض إتاوات على القوافل للسماح لها بالمرور، وضمان سلامة أموالها ونفوس المشاركين فيها¹. هذا ما كانت تفعله أكثر القبائل التي تمر القوافل بأراضيها. والبدو وسكان الأراضي الفقيرة والرعاة هم أكثر الأطراف ممارسة لقطاع الطرق.

إن تفريط الحكام في اتخاذ التدابير العلاجية الناجعة للمشاكل الاقتصادية والأمنية، يقابله إفراط في نشاط حركة الجماعات المنظمة وغير المنظمة². لذا كان هؤلاء الأعراب مصدراً دائماً لقلق الحجاج وأمرأ الحج، ولم يكونوا يهتمون في سبيل الوصول إلى ما يريدونه من مال ومتاع ما يزهق من أرواح، وما يترتب عن ذلك من مأس في الطريق بين الحجاز ومصر؛ حيث الحركة الدائمة. وتشكلت شتى العصابات من قطاع الطرق تنهب وتسلب على الدوام، رغم وجود السلطة وسيطرتها على البلاد.

لقد رأى العبدري عند مغادرته القاهرة إلى بركة الصحراء، ومن ثم إلى البرية الكبيرة التي تقع بين الحجاز ومصر، قوماً من العرب صعاليك ينتقلون من موضع إلى موضع آخر، يذكر من صفاتهم: أنه «ليس لهم قوت إلا ما يختارونه من بعيد، وقل ما يظهرون للركب لخبث أفعالهم، ويتربصون الركب ويطلعون من كل مرقب؛ فإذا ما رأوا متخلفاً عنه لغفلة أو نوم أو انقطاع عجز، انقضوا عليه فمزقوا أشلاءه، ولو لم يجدوا عليه إلا خرقة واحدة لم يتركوها له»³.

ويضيف العبدري أنه لولا صاحب مصر (المنصور سيف ابن قلاوون)، وحرصه الدائم على سلامة الركب، وإخراج الحصة معه بأمر على أكمل ما يكون من الاستعداد والتأهب، ما استطاع هو، ومن معه من الحجيج، أن يسلكوا تلك البرية بطولها وغلانها إلا من القطيع واللصوص⁴. ويحدثنا العبدري عن حكاية قبر رجل من العرب امتن قطع الطريق على الحجاج، ويدعى قبر (السفاف)، وذلك عندما مر على وادي القر المتصل بمغارة شعيب في بلاد الحجاز، وكان هذا الرجل لا يكاد يسلم منه أحد لترصده إياهم، واستمر على

¹ - المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إبراهيم حركات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998م، ص 259.

² - المرجع نفسه، ص 260.

³ - الرحلة، العبدري، ص 154.

⁴ - المصدر نفسه، ص 154.

هذا المنوال إلى أن مرض مرضه الذي توفي فيه. وفي أثناء مرضه، بلغ إلى مسمعه مجيء بعض الحجاج؛ فاستدعى أبناءه الذين ظنوا أنه سيأمرهم بعدم التعرض للحجاج، والساح لهم بالمرور وإكرامهم، وأنه قد تاب يده بإشارة إليهم سفوهم سفا فسمي (السفاف)، ثم مات فرجم قبره، ومن ذلك الحين إلى وقت قدوم العبدري شاهد كوما عظيما من الحجارة عليه¹.

ومن جانب آخر، أبدى العبدري استهجانه من تكرار الاعتداءات السافرة على ركب الحجيج، وذلك لما نقل إلى مسامعه خبر المقتلة العظيمة التي وقعت للحجاج المغاربة، قبل مجيئه لقرية لفافة ببضع سنين. يقول: «ووقعت به في بعض الأعوام في الحجاج مقتلة عظيمة قتلهم العرب وانتبهوهم، وكان الحجاج مغاربة، والركب المصري قد تخلف في ذلك العام؛ فتنجاسر المغاربة على النفوذ فانفق لهم ما اتفق»².

ولم تقف الاعتداءات على قوافل الحجيج في الطرق بين مصر وبلاد الحجاز، فقد لاحظ العبدري انعدام الأمن، وانتشار أعمال السلب والنهب التي يقوم بها قطاع الطرق، في الطريق الذي تقطعه القوافل من فاس إلى الإسكندرية، فالمسافر عندما يخرج من مدينة فاس إلى الإسكندرية، لا يزال في فوضى ظلماء وخبط عشواء، لا يأمن على ماله ولا على نفسه، ولا يؤمل راحة في غده، إذ لم يرها في يومه ولا أمسه على حد قوله³. وكانت بعض القوافل تدافع عن نفسها بحد السيف، فلا يستطيع الأعراب مناجزتها، وقد يكون النصر حليفها في بعض الأحيان، ويرجع إلى هذا تنظيم الركب وانضباطه، واستعداده الدائم، وتأهبه لأي إغارة تشن عليه بين الحين والآخر، وفي هذا الصدد يذكر ابن جبير تعبئة أمير الحاج العراقي وتأهبه، عندما نزل الركب على حصن فيد - وهو يقع في منتصف الطريق بين بغداد ومكة على المدينة. قائلا: «إرهابا للمجتمعين به من الأعراب لكيلا يداخلهم الطمع في الحاج، فهم يلحظونهم مستشرفين إلى مكانهم لكنهم لا يجدون إليهم سبيلا»⁴. ويؤكد ابن بطوطة ما نقله ابن جبير في ذكر تأهب الركب العراقي وتعبئته في ذلك الموضع⁵ مع أميري العرب مناحي وخيار؛ ابني الأمير مهنا بن عيسى المفوضين من قبل الملك الناصر قلاوون، للمحافظة على قوافل الحجيج والتجار والمسافرين⁶.

¹ - المصدر نفسه، ص 160.

² - المصدر نفسه، ص 161.

³ - المصدر نفسه، ص 378، 32، 4.

⁴ - الرحلة، ابن جبير، ص 156.

⁵ - رحلة ابن بطوطة، 413/1.

⁶ - المصدر نفسه، ص 413.

أما طريق مكة-المدينة المنورة، فإن الشر يزداد تلقائياً حيث حركة الحجاج. ففي إحدى الوقفات في الطريق ما بين مكة والمدينة، عاين العبدري شخصاً من الحجاج قد تخلف عن الركب مغتراً بقرب المدينة، فما أن سار الركب حتى انفرد به قطاع الطرق وجردوه من ثيابه، وبعد الضرب المبرح، وأثنوه جراحاً. وبالتالي ظل بالمدينة أياماً منقطعاً لا يستطيع الحراك، لذا لم يلحق بالركب عندما هم بالخروج من المدينة. والعبدري يصف هؤلاء الأعراب بأنهم من أشد الناس كفراً وضراوة، مقارنة بقطاع الطرق واللصوص في المسالك الأخرى¹.

ولم يقتصر الأمر على اعتداءات الأعراب على ركب الحجاج، بل أصبح أمراء مكة يعتدون على الركب داخل الأراضي المقدسة؛ طمعا في أموال الحجاج! وقد أدى ذلك إلى قتال بين الحجاج الذين كان يقودهم أمير الحج وأمير مكة. فقد حدث أن نهب أهل مكة ركب الحج العراقي سنة 539 هـ/1144م، بسبب الخلاف بين أمير مكة هاشم بن فليته² وأمير الحج العراقي، وهم داخل المسجد يطوفون ويصلون³. كما نهب أهل مكة الحجاج العراقيين سنة 557 هـ/1162م، وعاد جماعة منهم قبل إتمام حجه⁴. واغتيال باطني سنة 608 هـ/1212م، شخصاً من أسرة أمير مكة، فجمع الأمير أهل مكة والعبيد والأشراف، وهاجم الحجاج بمنى ونصبهم، وأحدث الرعب بينهم ثم بعث بعد ذلك يعتذر إلى الخليفة العباسي⁵. في سنة 571 هـ/1176م حصل قتال بين أمير الحج العراقي طاشتكين وبين أبي مكثر أمير مكة لقيامه ببناء حصن على جبل أبي قبيس؛ فاعتبر الخليفة المستضيء ذلك العمل نوعاً من التحدي له، فقرر عزله من الإمارة، وهدم ذلك الحصن؛ فأمد طاشتكين بقوة عسكرية وبما يحتاجه من السلاح وآلات القتال، وبعدد من النفاطين. وعندما علم الأمير أبو مكثر بقدمه لعزله، جمع ما استطاع جمعه من الأشراف والأعراب واستعد للقتال. ولم يحج إلا القليل من أهل مكة ذلك العام⁶. وهذه الحادثة أكدها الرحالة ابن جبير، غير أنه لم يسهب في تفصيل أسبابها. يقول: «وفي أعلاه (جبل أبي قبيس) آثار بناء حصن مشيد كان اتخذ معقلاً أمير البلد عيسى أبو مكثر، فهدمه عليه أمير الحاج العراقي (طاشتكين) لمخالفة صدرت عنه، فغادره خراباً»⁷.

¹ - الرحلة، العبدري، ص 201.

² - هاشم بن فليته بن القاسم بن أبي هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الأصغر محمد بن عبد الله بن أبي هاشم الأكبر محمد الأمير، أمير الحرمين. تولى إمرة مكة من سنة 527 هـ إلى 549 هـ. أما ولايته على المدينة فلم تذكر المصادر سنة ولايته عليها. (انظر النكت العصرية، ص 31-32)

³ - إنحاف الوري في أخبار أم القرى، ابن فهد، 403/1.

⁴ - المصدر نفسه، ص 403.

⁵ - الكامل، ابن الأثير، 98/6 و 20/7. وانظر تعليق محققه في الصفحة 334.

⁶ - العقد الثمين، الفاسي، 257/7 - 276.

⁷ - الرحلة، ابن جبير، ص 74.

بلغ الاستهتار بالقيم الدينية وبمناسك الحج حدا كبيرا؛ حتى إن الحجاج كانوا يبيتون في عرفة بدلا من سنة المبيت بمنى، وذلك لـ«ما يخاف من الأعراب في أطراف النهار وأعقاب الليل، ومن تأخر من الناس أو انفرّد. وانسلّاهم بين تلك الشعاب، وتوغلّهم في الجبال بحيث يتعذر الانجفاف عليهم بخيل أو ركاب. وربما انتهت قطاع العرب بعض من تأخر من أهل الركب»¹.

كما كان الحجاج لا يرمون الحجرات في اليوم الثالث خوفا من عرب بني شعبة (الشعبيين)، الذين عرفوا بشراستهم إزاء الحجاج العراقيين خصوصا، إذا ما علموا بقلّة العسكر المكلفين من قبل الخليفة أو جند أمير مكة، وفي هذا يذكر ابن جبير أن الحاج ينفصل إلى مكة، وقد اختصر الوقت في يومين حيث يرمي تسعا وأربعين حصاة، وذلك خوفا من عرب بني شعبة، وكان في القديم يرمون سبعين عندما كان الأمن مستتباً في أرجاء مكة².

كما بلغ من غياب السلطة الرسمية وغيرها من تأمين الحجاج أن عرب بني شعبة يقطعون الماء عن عرفات، ولا يقبلون بحلبه إلا بغدية من المال الوفير. فكان لزاما على الحجاج الاستجابة لمطالبهم لتفادي وهج الشمس وحرارتها. يذكر ابن جبير عن الوزير جمال الدين - وزير صاحب الموصل - الخصال الحميدة. فهو كان يقوم بحلب الماء إلى عرفات عندما كان عرب بني شعبة يقطعون المجلوب من الماء، فافتدى بذلك بوظيفة من المال كبيرة على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج؛ وبهذا الصنيع تنعم الحجاج بنعمة جلب الماء إلى عرفات، والأمان من اعتداء عرب بني شعبة عليهم. ولكن كان هذا في بضع سنين، إذ إنه بمجرد وفاته رحمه الله عادوا إلى فعلتهم الذميمة تلك³.

ولم يقتصر الأمر على اختلال الأمن في الأماكن المقدسة كاعتداء عرب بني شعبة في عرفات على الحجاج، بل أصبحت منى كذلك موضعا تحدث فيه المناوشات والصراعات بين الطوائف والأجناس، لأنها كانت تتمتع بسوق من أعظم الأسواق خلال ثلاثة الأيام في موسم الحج، فها هو ابن جبير يذكر خبر إحدى المناوشات العظيمة بين عبيد مكة والأتراك العراقيين في سوق منى، والتي نجم عنها الفتنة والبلبلّة بين صفوف الناس، حتى وصل الأمر إلى إسلال السيوف، ورمي السهام بين بعضهم البعض، إلا أنها انطفأت سريعا، وكأنها من الأمور الاعتيادية التي قد اعتاد عليها الحاج في منى⁴.

¹ - ملء العيبة، ابن رشيد، 87/5.

² - رحلة ابن جبير، ص 134-135.

³ - المصدر نفسه، ص 89.

⁴ - المصدر نفسه، ص 135.

والى جانب ذلك، كان يحدث أن يقع نهب للحجاج وهم يؤدون شعائر الحج بمكة! فهذا ابن بطوطة يذكر لنا خبر الصبي الصغير الذي سرق بعض الحجاج في مكة فأقيم عليه الحد أمام أنظار الناس نتيجة ما اقترفت يده. يقول: «كان تقي الدين المصري محتسبا، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه، فاتفق في بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج، فأمر بقلع يده، فقال له تقي الدين: أن تقطعها بحضرتك وإلا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه، فأمر بقطع يده في حضرته، فقطعت».

كل هذا لم يكن كافيا! فقد استشرى الفساد والانحلال حتى بين أوساط القائمين على أمر الدين، ففي سنة 581 هـ/1186م نفذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبين محمد بن إسماعيل الذي كان مشرفا على حجابة الكعبة آنذاك، ونهب منوله، وعزله لهنات نسبت إليه «لا تليق بمن نيطة به سدانة البيت العتيق»¹. ورغم أننا لم نستطع معرفة تلك الهنات، إلا أنها تبدو اختلاسات أو سوء أخلاق صدرت عن محمد بن إسماعيل أدت بالأمر إلى مكثر إلى عزله. ولكن الأمر لم يستمر طويلا؛ إذ لم يلبث أن أعاده إلى منصبه مقابل خمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها غرامة. وانتقد ابن جبير ذلك المشهد العجيب قائلا: «فطال التعجب من ذلك والاعتبار، وتحققنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمت الله المنتهكة على يديه، مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة، والحال تشبه بعضها بعضا، وإلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى في أشرف الأرض، وهو حسبنا ونعم الوكيل»².

وأشار ابن خلدون كذلك في رسالته الجوابية إلى ابن الخطيب سنة 769 هـ/1367م، ما آل إليه وضع الحاج من السوء والإهمال في المشرق العربي في ذلك العهد، فقال: «وأما الشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاع³ الجفاة على كرسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاج بيته ما يسخن العين ويطليل البث حتى لزعموا أن الهيعة⁴ اتصلت بالقاهرة أياما، وكثر الهرج في طرقها وأسواقها»⁵. ولقد أشار إلى هذا الجو المفعم بالفوضى والاضطراب كل من أرخ لهذه الفترة، وهكذا يذكر ابن حجر أمثلة

¹ - الرحلة، ابن جبير، ص 122.

² - المصدر نفسه، ص 124.

³ - نزا بين القوم: نزغ وأغرى بينهم، يقال: نزا الشيطان بينهم، (انظر رحلة ابن بطوطة، 390/1).

⁴ - الهيعة: كل ما أفزعك من صوت أو فاحشة تشاع.

⁵ - التعريف بابن خلدون، ص 126.

كثيرة لعمليات الاعتداء والسرقة التي كان يتعرض إليها الحجاج والمسافرون، ففي محرم عام 800 هـ/1397م نهبت ودائع الحجاج بالعقبة¹. كما كانوا يعترضون لهم عادة في الطريق بين مكة وينبع، أو بين المدينة وينبع أيضاً². أما صاحب كتاب (شفاء الغرام) فقد أشار إلى حالات كثيرة تؤكد الضرر الذي ألحق بالحجاج من فتن واضطرابات في مكة وغيرها من بلدان المشرق. ففي سنة 761 هـ، كانت بمكة فتنة عظيمة بين أهلها والترك³. بينما في سنة 777 هـ كان بمكة قتل ونهب في الحجاج في يوم التروية⁴، وكذلك تعرض الحجاج إلى نهب في منى وفي طريق مكة⁵. أما في سنة 787 هـ فقد حج الركب العراقي بعد انقطاعه برهة من الزمن، وكان حجاجه قليلين. وفي سنة 803 هـ، لم يحج أحد من الشام على الطريق المعتاد. وكذلك لم يحج العراقيون في سنوات عدة منها: 821، و822 و823، و824 هـ⁶.

سادسا: من مظاهر عناية المرينيين بطريق الحج

عني المرينيون بالحج وما يتعلق به عناية خاصة، حيث عملوا على انتظام ركب الحج، وسهروا على توفير الأجواء المناسبة لنجاحه ومن ذلك تأمين الطريق.

فبعدما حاصر يوسف بن يعقوب تلمسان لمدة، استطاع بسط نفوذه على جل المغرب الأوسط⁷، واستتب الأمن بطريق الحج البري خصوصا في المغرب الأوسط، فنظم أول ركب سنة 703 هـ/1284م، واستمر بانتظام إلى وفاته رحمه الله في السابع من ذي القعدة سنة 706 هـ/1306م⁸، فتعثر الركب نسبيا بسبب تعرض السفارة المصرية للنهب بعد زيارتها للمغرب من قبل أعراب بني احسن، وهي في عودتها إلى مصر، وكان ذلك بتحريض من سلطان بني عبدالواد، الذين تعرضت عاصمتهم تلمسان لحصار طويل من قبل أبي يعقوب المريني⁹.

ورغم ذلك، ظل ركب الحاج المغربي يتوجه إلى الديار المقدسة لأداء المناسك، ومما يدل على ذلك أنه في بداية عهد السلطان أبي سعيد عثمان (710-731 هـ/1310-1331م)، رجع أحد ركاب الحاج المغربي بشيخ

¹ - أنباء الغمر، ابن حجر، 8/2.

² - المصدر نفسه، 316/2 - 379.

³ - شفاء الغرام، تقي الدين الفاسي، ص 297.

⁴ - المصدر نفسه، ص 298.

⁵ - المصدر نفسه، ص 302.

⁶ - المصدر نفسه، ص 297 - 198 - 302.

⁷ - القرطاس، ابن أبي زرع، ص 386 وما بعدها.

⁸ - يشير ابن أبي زرع في القرطاس (ص 388) إلى أنه اغتاله خصي من غلمانه.

⁹ - القرطاس، لابن أبي زرع ص 386-388، والعبر لابن خلدون، 269/7.

فاضل من سادة كربلاء بقصد التبرك به، والاستئناس بمجالسته، وقد خرج السلطان بنفسه لاستقبال الشيخ «بخولان» من ضواحي فاس على مقربة من «حامة حرزهم»¹، ويسمى هذا الشريف أبا عبد الله محمد، ويلقب بالهادي وهو جد الأشراف العراقيين الموجودين حالياً بالمغرب².

وفي عهد أبي الحسن المريني (731-752هـ/1331-1351م)، استُؤنفت العلاقات بين المغرب ومصر³، وكان من بين أهداف هذه العلاقات تأمين طريق الحاج المغربي بعد وصوله إلى مصر في اتجاه الأماكن المقدسة. ويعد الركب الذي توجه فيه عثمان بن جرار سنة 736هـ/1335م، أول ركب للحجيج في عهد أبي الحسن المريني، وكان الهدف من مرافقته هذا الركب تهيئة الظروف المناسبة في مصر والحجاز؛ استعداداً لقدم والده السلطان المذكور قصد أداء فريضة الحج⁴. وبما أن والده أبي الحسن توفيت قبل سفرها بقليل، قرر السلطان أن يبعث عوضاً عنها «من يقوم مقامها»، ويتعلق الأمر «بأم أخته وحظية والده» الأميرة مريم⁵.

ولما بسط أبو الحسن المريني نفوذه على المغربين الأقصى والأوسط، عقد مصاهرة مع الحفصيين في إفريقية، مما أدى ذلك إلى إزالة العوائق، أمام وفود الحجاج المغاربة المتوجهين لقضاء فريضة الحج⁶.

ففي سنة 738هـ/1337م، هجز أبو الحسن الركب الذي رافق الأميرة مريم، وأوكل لهذا الركب عدة محام تدخل في إطار تعزيز مكانته الدينية في المغرب والمشرق الإسلاميين، وهذه المهام هي:

- السهر على مصالح المغاربة حتى يؤدوا مناسكهم في أحسن الظروف.
- تزويد الوفد المغربي بالأموال اللازمة كل حسب مرتبته.
- حمل المصحف الشريف الذي خطه أبو الحسن بقلمه، وكذا إيصال الأموال المحبسة على القراء في المصحف السلطاني، وعلى علماء المذهب المالكي.
- والوفد بهذه المهام يقتضي حماية طول الطريق، وتأمين كل المراحل.

¹ - هي حامة سيدي حرازم، التي تقع جنوب غرب فاس.

² - التاريخ الديبلوماسي، عبد الهادي التازي، 206/7.

³ - التاريخ الديبلوماسي، عبد الهادي التازي، الفصل الخاص بالعلاقات السياسية بين مصر والمغرب.

⁴ - المسند الصحيح الحسن، ابن مرزوق، ص 240-241.

⁵ - المصدر نفسه، ص 240-242.

⁶ - المصدر نفسه، ص 241-242.

وفي إطار العلاقات الطيبة بين المغرب والمشرق الإسلاميين، وفي إطار التنسيق أخذت السلطات المملوكية على نفسها تأمين طريق الحج للركب المغربي بين مصر والحجاز، كما تكفلت بالسهر على مصالحه حتى يؤدي فريضة الحج في أحسن الظروف.